الباب الثاني: اتجاهات التفسير في القرنين التاسع والعاشر الهجري

الفصل الأول: التفسير بالمأثور.

الفصل الثاني: التفسير بالرأي.

المبحث الأول: اتجاه التفسير الفقهي.

المبحث الثاني: اتجاه التفسير البياني.

المبحث الثالث: اتجاه التفسير العقدي.

الفصل الأول: التفسير بالمأثور

يستخدم المفسرين هذا النوع من التفاسير لتفسير ما بكتاب الله، وسنة نبيه الكريم، والأقوال المأثورة التي أخذها الصحابة عن النبي وأخذها عنهم بعد ذلك التابعين والسلف الصالح من الاجيال الاولى من المسلمين، وهذا التفسير هو أحد انواع التفسيرات الدينية الموثوقة والصحيحة المؤكدة لآيات القرآن الكريم والمأخوذة منه بدون تحريف في المعاني او اتباع لأفكار شخصية او تأويل، وكانت هذه التفسيرات مراعية لروح الشريعة وليست تفسيرات مجردة، وجاءت واضحة ومباشرة، ومتأصلة من النصوص الدينية كالقرآن الكريم والسنة النبوية.

المبحث الأول: مفهوم التفسير المأثور وأهميته

أولاً: مفهوم التفسير المأثور:

المأثور في اللغة:

مأثور هو اسم مفعول من أثر، وهو الموروث من السلف للخلف، فنقول: أثر أثر وهو الحديث إذ نقله فهو مأثور أي هو منقول[١]، والإثر: وهو مصدر أثرت الحديث أي كأنك تقول: نقلت الحديث عن الغير، ومنه الحديث المأثور وهو المنقول من الخلف عن سلفٍ، ويقول عمر : " فما حلفت به ذاكراً ولا آثراً"[٢]، أي أنه قد أخبر عن الغير بأنه قد حلف به[٣].

وكلمة "مأثور" في اللغة العربية تعني "منقول" أو "مروي"، وهنا في السياق الديني، تستخدم للإشارة إلى المعلومات أو الأحاديث أو الروايات التي تم نقلها أو انتشارها عن شخصية معينة، مثل النبي

---

[١] محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، (١٤١٤هـ)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط٣، ٤/ ٦.

[٢] أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يحلف بغير الله، حديث رقم (٢٠٩٤)، (٥٧٧/١).

[٣] أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، (١٩٨٧)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ٢/ ٥٧٤.

محمد صلى الله عليه وسلم أو الصحابة والتابعين، وتكون مروية بطرق وسائل النقل الحديثة أو السند[1]، وهو مسلك قد أخذ في التوخي للآثار التي وردت في معاني الآيات الكريمة فيتم ذكرها، ولا يكون بها اجتهاد في المعنى بدون أصل، ويتوقف عما ليس له طائل ولا أية فائدة في المعرفة له ما لم يكن فيه نقل وارد عنه صحيح.

التعريف اصطلاحا:

عرفه السيوطي أنه: "كل ما قد جاء في القرآن الكريم نفسه من بيان وتفصيل لآياته وما قد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة والتابعين، أي هو بيان وتوضيح لمراد الله من نصوصه الكريمة"[2].

وعرفه الزرقاني: " هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه"[3].

ومن الأمثلة عليها التي أوردها الزرقاني:

- لقد جاء في القرآن الكريم، قوله سبحانه: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)[4]، حيث جاءت كلمة "من الفجر": هنا مفسرة للكلمة السابقة وهى "الخيط الأبيض".
- وكذلك قوله سبحانه:(قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[5]، فأنها توضح للفظة " كلمات"، كما جاءت في قوله تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه).

---

[1] مناع بن خليل القطان، (٢٠٠٠)، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر، ط٣، ٣٨٥.

[2] عبد الرحمن الكمال جلال الدين السيوطي، (٢٠١١)، تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور، بيروت، دار الفكر، ٦/١.

[3] محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، د.ن، ١٢/٢.

[4] سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

[5] سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

- وقوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)[١]، فهى تعد توضيح للفظ "ما يتلى عليكم" من قول الله سبحانه وتعالى:(أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُم)[٢].
- وقوله أيضاً (لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)[٣]، فهى بيان للعهدين بالآية: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)[٤]، فالطلب الأول للوعد الاول، والطلب الثاني للوعد الثاني.
- وفي قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ)[٥]، فجاءت كلمة "النجم الثاقب" دالةً لكلمة الطارق التي سبقتها.

وقد ورد في السنة أمثلة كتوضيح لآيات القرآن، حيث قد فسر معنى الظلم، بلفظ " الشرك"، وهذا في قوله سبحانه وتعالى:(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)[٦]، وتأكيداً على هذا التفسير في قول الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[٧].

وقد فسر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، جزء من الأحاديث النبوية التي تنبأ بيوم القيامة والحساب الذي سيحاسب فيه الناس على أعمالهم وقال: ((من نوقش الحساب عذب))[٨]، وهو إشارة من النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن من يُحاسب في يوم القيامة سيكون عرضة للعذاب إذا كانت أعماله لم تكن مقبولة أو كانت هناك مخالفات وذنوب لم يتوب عنها في الدنيا.

---

[١] سورة المائدة، الآية:٣.

[٢] سورة المائدة، الآية: ١.

[٣] سورة المائدة، الآية:١٢

[٤] سورة البقرة، الآية: ٤٠.

[٥] سورة الطارق، الآية:٢.

[٦] سورة الانعام، الآية: ٨٢.

[٧] سورة لقمان، الآية: ١٣.

[٨] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، حديث رقم (٦٥٣٦)، (١١١/٨).

والحساب سيكون عسيراً على الإنسان، فيُظهر ما فعله من خيرات وشرور، وما إذا كان قد أدين بحقوق الله وحقوق الناس، فمن يحاسب بشدة يُعرض لعذاب في الآخرة، واستجواب دقيق وصارم عن الأعمال والسلوكيات التي قام بها الإنسان في الحياة الدنيا[١].

فقالت له السيدة عائشة رداً على كلام سيدنا محمد أو ليس قد قال الله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ)[٢].

لهذا كان التفسير بالمأثور يعتمد على أدلة صحيحة منقولة من القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث أن السنة النبوية موضحةً للقرآن الكريم، وأيضاً يمكن الأخذ عن الصحابة والسلف الصالح لأنهم تلقوا تفسيرات القرآن الكريم عن النبي، وأيضاً كبار التابعين الذين تلقوا عن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، والنهج الذي يتبعه المفسرين بالمأثور في تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية والمنقولات عن الصحابة والتابعين يركز على الأقوال الدينية والروايات المعروفة المتأصلة من القرآن أو السنة او ما اخذ عن السلف الصالح في توضيح معاني الآيات القرآنية[٣].

إن المفسرين بالمأثور لا يبالغون في التأويل أو الاجتهاد في تفسير ما لم يأتِ بدليل صحيح وموثوق، بل يقتصرون على ذكر الآثار الموثوقة والمأخوذة من النصوص الدينية، ولا يحاولون تفسير معاني الآيات بافتراضات أو استنتاجات خاصة بهم.

كما يتوقفون عن التعليق أو التأويل في موضوعات ليست ذات فائدة مباشرة أو ليست لها أصل من النقل الصحيح، لأنهم يركزون على ما هو ثابت ومعتمد من النصوص الدينية بدقة وحذر.

---

[١] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، د.ن، ١٣/٢.

[٢] سورة الانشقاق، الآية:٨.

[٣] محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، مكتبة وهبة، د.ن، ١١٢/١.

كما ذكر ابن تيميه: أن النبي صلى الله عليه وسلم وضح لأصحابه آيات القرآن الكريم وتفسيراته وألفاظه كما في قوله تعالى: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[1]، وكما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن مثل عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود، بتعلم القرآن بشكل شامل، لا يقتصر فقط على حفظ النصوص بل يتضمن فهماً عميقاً وتطبيقاً فعلياً.

ان الصحابة كانوا يعتنون بتعلم عشر آيات من القرآن لفهمها بشكل كامل وللتأكد من تطبيق معانيها في حياتهم اليومية، كما قال الله تعالى في كتابه (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)[2]، وقال (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ[3]).

وهذا يدل على أنهم لم يكتفوا بحفظ القرآن دون فهم أو تطبيق فعلي، وكانت عادتهم أيضاً أن يبقوا فترة طويلة في حفظ كل سورة واحدة لضمان فهمها وتدبر محتواها، كما لاحظنا إصرار ابن عمر على حفظ سورة البقرة لمدة ثماني سنوات، وهو ما يظهر الاجتهاد الكبير في فهم وحفظ وتطبيق محتوى القرآن الكريم.

ويعد هذا التركيز على التعلم والتفاني في فهم وحفظ وتطبيق النصوص القرآنية يعكس التفاني والاجتهاد الذي كان يبذله الصحابة في التعلم والتأثير العميق للقرآن في حياتهم.

إن التفسير بالمأثور يعتمد على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والروايات الواردة عن الصحابة والتابعين، حيث أن الاختلاف بين السلف والأجيال الأولى من المسلمين كان ضئيلاً جدًا مقارنةً بما جاء بعدهم من الأجيال وكان الاختلاف في أفكارهم يكون في التعبير وليس في المعنى نفسه.

---

[1] سورة النحل الآية ٤٤

[2] سورة ص الآية ٢٩

[3] سورة محمد الآية ٢٤

والاختلافات التي أوردها ابن تيمية ترتكز على نوعين[1]:

الأول: عندما يعبر أحد السلف عن المقصود في النص بطريقة مختلفة عن طريقة صاحب النص الأصلي، لكن يكون المعنى متفقًا فمثلاً، تفسير الآية : (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)[2]، حيث تشير إلى اتباع القرآن وقال البعض الآخر إنها تشير إلى الإسلام، ولكن الفكرة العامة للاتفاق تكمن في أن دين الإسلام يدل على اتباع القرآن ولكن كل منهم ركز على جانب معين من المعنى.

والثاني: عندما يذكر كل من السلف أنواعًا من الأشياء العامة بطريقة التمثيل لتوضيح أو تنويه للمستمع عن الجانب المقصود، على سبيل المثال، في تفسير قول الله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)[3]، حيث قيل إن "السابق" يشير إلى الشخص الذي يصلي في أول الوقت.

كما ذكر ابن عباس، رضي الله عنه، أن التفسير يمكن أن يكون على أربعة أوجه، أحدها يتعلق بمعرفة اللغة العربية والتعبيرات التي استخدمتها اللغة، والآخر متعلق بتفسير القرآن بما روي عن النبي والصحابة[4].

ثانياً: أهمية التفسير بالمأثور:

إن هذا النوع من التفاسير هو واحدًا من أفضل أنواع التفسير المبكرة التي اهتم بها العلماء، حيث نجد أن رجال الحديث والرواية كانوا أول من اهتم بهذا الجانب، فقد كانوا يدوِّنون هذا التفسير

---

[1] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، (١٩٨٠)، مقدمة في أصول التفسير، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص١١.

[2] سورة الفاتحة، الآية: ٥.

[3] سورة فاطر، الآية:٣٢.

[4] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (١٩٧٤)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، د.مط، ٢/ ١٨٦.

ويجمعونه، فكانت كتب الحديث الصحيحة تحتوي على باب خاص للتفسير، حيث جمع فيها أصحاب هذه الكتب بعضًا مما نقل عن النبي والصحابة من التفسير المأثور[1].

وأهمية هذا التوجه في التفسير المأثور تأتي من كونه المفتاح لفهم القرآن ومدى تحقيق أهدافه، سواء لمن يرغب في الاستجابة لله بتدبُّر كلامه، أو لمن يحاول التفسير بالرأي الشخصي، إذ يتوجب عليه أن يتعرَّف على التفسير المأثور لمعرفة أسباب التزول والتبدل وغيرها من العلوم اللازمة، وهذه العلوم لا تُفهم أو تُقبل إلا بالاستناد إلى التفسير المأثور، إذ تمثل هذه العلوم جزءًا منه وتستمده، ونادرًا ما يمكن الاستناد إلى قول مُعتبر خارج إطار أقوال النبي والصحابة.

إن مصادر التفسير المأثورة والتي تعد أفضل طرق التفسير دون جدال، هي المصادر التي تأتي من الهدى النبوي وتلقاه منه الصحابة والتابعين وتلاميذهم، إذ يعتبرونها مرجعيتهم الأساسية في البيان والشرح، وهي الهدى الذي يستندون إليه في فهم معاني القرآن وتأويلها.

وتعد عبارات الإمام الطبري التي يشير فيها إلى أن القرآن يحتوي على معانٍ متعددة تتعلق بمختلف جوانب الحياة، وأحكامها، ويقول إن فهم هذه المعاني يتطلب بياناً وشرحاً يأتي من هدي النبي، ولا يمكن فهمها إلا من خلال إرشاداته المباشرة أو تفسيره المأثور.[2]

وقد شدد الطبري على أن هذا الوجه من القرآن لا يُمكن لأحد القول فيه برأيه الشخصي أو تأويله دون دليل مباشر من هدي النبي، أو إشارة مباشرة من دليل أتباعه، حيث يُعتبر القول ذلك مخالفاً وغير مقبول، وذلك لضمان الصحة والدقة في فهم وتأويل القرآن[3].

---

[1] نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٤١٤هـ) ، علوم القرآن الكريم ، دمشق: مطبعة الصباح ، ص: ٧٤.

[2] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مكة المكرمة: دار التربية والتراث ، د.ن،١/ ٧٤.

[3] أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، بكر بن عبد الله أبو زيد ، (١٤١٧هـ). ، الموافقات ، دار ابن عفان ، ط١، ٢١/٤.

ولابد من الرجوع إلى السنة النبوية وفهم أصول الدين، لفهم وتفسير القرآن بشكل صحيح، ويقول الإمام الشاطبي إن السنة توضح المعاني العامة وتخصص المعاني العامة إلى معاني محددة، ومن هذا يتبين أن مراد الله من تلك الصيغ القرآنية يُوضح من خلال السنة النبوية.[1]وبالتالي، من يلتزم فقط بالظاهر والسطحي للصيغ القرآنية دون الرجوع إلى السنة يضلّ ويخطئ في فهم القرآن. ويوضح أيضًا أن العقول وحدها لا تفهم كل المصالح والأضرار في التصرفات الدنيوية، وأنها تحتاج إلى التوجيه والإرشاد من السنة لفهم المعاني العميقة والشاملة.

وقد أشار ابن حزم إلى خطورة ترك الأخذ بالسنة، حيث يُعتبر من يقول "لا نأخذ إلا ما وُجِدَ في القرآن" كافرًا، ويُعدّ هذا القول تمرّدًا على الكفاية الإلهية والاتفاق الإسلامي، ويوضح ذلك أنه لم يكن للصحابة وأتباعهم رأي في آية واحدة إذا كان روى النبي فيها شيئًا[2].

ولابد من وجود مصادر معتمدة لفهم القرآن الكريم، حيث يقول الإمام الشافعي أن من وجد سنة رسول الله في أي موضوع فلا يجوز له أن يتركها لقول أي شخص آخر، فالثقة بالسنة النبوية كمرجعية في فهم القرآن هي مسألة متفق عليها بين المسلمين.[3]

وهنا ظهرت أهمية تفاسير الصحابة، حيث كانت هناك حاجة ملحة لفهم القرآن بالنظر إلى التحولات الثقافية والدينية في ذلك الزمان، بدخول الأمم والثقافات المختلفة إلى الإسلام وظهور أجيال جديدة لم تشهد الوحي مباشرة[4].

فالتابعين كانوا يلتمسون فهم القرآن والتفسير من الصحابة، وكانوا يعرضون المصحف على أهل العلم من الصحابة للاستفادة من معرفتهم العميقة بالدين، هذا يبرز حرصهم الشديد على الحفاظ

[1] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ،الإحكام في أصول الأحكام ، بيروت: دار الآفاق الجديدة، د.ن ، ٨٠/٢.

[2] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، (١٩٩١)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١،٦/١.

[3] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مكة المكرمة: توزيع: دار التربية والتراث، ط١، ص١٠٨.

[4] المرجع السابق: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري جامع البيان، ص١٠٩.

على صحة التفسير وفهم القرآن، وينبغي أن يُفسر القرآن والحديث وفقًا لما تفسره الصحابة والتابعون لضمان تفسير صحيح وللحفاظ على الدين الإسلامي، ويعتبر ابن تيمية أن تفسير القرآن خارج نطاق التفسير المعروف من الصحابة والتابعين هو مخالفة لله وللكتاب الذي لا يصحح ولهذا يُعتبر مفترًا وملحدًا ومحرفًا لكلمات الله.[١]

ومن الضروري توضيح أهمية الاعتماد على الروايات الثابتة والموثوقة التي نقلتها الأجيال الأولى من المسلمين عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي يُعتبر أصحابه هم ورثة الأنبياء، وكذلك التزام الصحابة والتابعين وأتباعهم بهذه الروايات في تفسير القرآن[٢].

أن مفسري السلف وكتب التفسير التي جاءت منهم استندت في تفسير القرآن بشكل رئيسي على ما رواه النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ما أفادوه من الصحابة والتابعين، وهو ما يؤكد أهمية وثقة هذه الروايات في فهم وتفسير معاني القرآن الكريم.

---

[١] أحمد بن تيمية ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله ، (١٤٢٥هـ) مجموع الفتاوى، المدينة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ط٣، ١٣/ ٢٤٣.

[٢] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، (١٤٢٢هـ) ، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، القاهرة– مصر: دار الحديث، ط١، ٢/ ٣٣٦.

المبحث الثاني: منزلة التفسير المأثور وأنواعه

أولاً: منزلة التفسير بالمأثور:

لقد انتشر نوع من التفاسير التي يُنسبها بعض الأشخاص للأحاديث النبوية أو الأقوال النقلية عن الصحابة والتابعين، مما يتطلب تحليلًا دقيقًا لمصداقية وثبات تلك الأقوال أو التفاسير.[١]
فالتفسير بالمأثور يتعلق بالنصوص الشرعية التي نقلت عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة والتابعين، حيث أن هذه النصوص تنقسم إلى قسمين، المرفوع والموقوف:[٢]

- **المرفوع:** وهو قاعدة قانونية مستقيمة للتفسير، حيث يتناول ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أسباب النزول والأحاديث المتعلقة بالأمور الغيبية والثواب والعقاب، وهذا النوع من التفسير يعتبر حجة قوية وثابتة.
- **الموقوف:** وهو منقسم لنوعين وهما:

الأول: يكون بناءًا على قاعدة نقل مباشر ولا يُمكن التجديد فيه، وهو يكون حجة وله قوة تفسيرية.
الثاني: يعتمد على الاجتهاد والتفسير الشخصي، ولا يعتبر هذا النوع حجة لأنه يختلف مع النص الشرعي ويحتاج إلى مزيد من البحث والتحقق.

وعندما يحدث اختلاف بين الصحابة في التفسير، يكون الحجة في مجموع أقوالهم، وليس في كل واحد منهم على حدة، مما يستدعي النظر إلى الاتفاقات الجماعية بينهم لفهم السياق والحكم الشرعي. وقد اشار ابن تيمية إلى أهمية الرجوع إلى قول التابعين في التفسير عند عدم العثور على تفسير في القرآن أو السنة، مشددًا على أن من قال في مشكلات القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل الصحابة والتابعين فهو معرض لسخط الله. كما أظهر ابن تيمية أهمية تمييز ما هو معتمد فقط

[١] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني ، ١٣٦٧هـ ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، القاهرة، ط٣، د.مط، ٢/ ٢٥- ٢/ ٦٤
[٢] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ)، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة، المملكة العربية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ط١ ،١٣/ ٣٦٨.

على التقليد وما هو مبني على نقل معصوم أو غيره، ويعتبر أن الاختلاف في التفسير ينقسم إلى ما يُمكن معرفة صحته وما لا، ويُشير إلى عدم جدوى الاهتمام بالأمور التي لا يمكن التأكد من صحتها وتحققها[1].

واشار كذلك إلى أمثلة من الاختلافات في التفسير بين التابعين والصحابة، حيث يعتبر أن التفسير الذي ينقل عن الصحابة مقبولًا بصورة أفضل من تفسير التابعين؛ لأن التابعين يمكن أن يكون سمعهم ضعيفًا أو معرضًا لتأثير أهل الكتاب الذين نهوا عن تصديقهم.[2]

هذا يبرز أهمية التمحيص الدقيق لمصادر التفسير وتحليل المعلومات المنقولة لضمان الاعتماد على ما هو صحيح وموثوق به في تفسير النصوص الدينية، فالتحقق من أهمية التفسير بالمأثور وصحته ومصادره في فهم القرآن الكريم، يشير إلى أن هناك ثلاثة مجالات في التفسير (التفسير، والملاحم، والمغازي) ليست لها أصل من السنة المشهورة، ولكن القسم الذي يمكن معرفة صحيحه منه يُظهر وجوده بشكل متكرر، وهذا الأمر يعني أن بعض الأحاديث المروية عن الصحابة تُشكل مرجعية في فهم التفسير.

إن التفسير بالمأثور يتفاوت في صحته وقبوليته، فمنه ما يعتبر مقبولًا بشكل أفضل لأن الأدلة تشير لصحته وقبوله، ومنه ما قد لا يُعتمد لسبب من الأسباب، فيجب رده ولا يمكن قبوله أو التشغل به.

وأيضًا تحفظ المفسرين والعلماء في التأكد من صحة المعلومات التي ينقلونها، ويؤكد أن الاهتمام بصحة المعلومات المنقولة هو مهم ويُحذر من قبول الأمور التي لا تتوافر لها الأدلة والصحة القاطعة.[3]

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ،(١٣٨٤هـ)، الجامع لأحكام القرآن المؤلف ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٢، ١/ ٢٤.

[2] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني ، ١٣٦٧هـ ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، القاهرة، ط٣، د.مط، ٢/ ٢٦.

[3] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني ، مناهل العرفان، ٢/ ٢٠.

فقد تكون الأقوال حول رد المأثور مبالغة أو تصب في إظهار كميات كبيرة من الروايات الضعيفة، ويُؤكد على أن الصحيح من المأثور قد يكون نادرًا ويُحث على التحري والتأكد من صحة المعلومات قبل قبولها.[1]

وهناك نقد وإشكاليات حول التفسير بالمأثور، ذلك لأن الروايات الصحيحة قد اختلطت بروايات ضعيفة ومشكوك في صحتها، حيث يُشير الباحثون إلى أن هذا التفسير عُرض للانتقاد الشديد من قِبَل الجماعات الأخرى والجهات التي تسعى للتشويش على تعاليم الإسلام ونقدها.

ويُؤكدون على ضرورة عدم الاعتماد الكامل على معتقدات وأفكار اليهود والنصارى والشيعة في فهم القرآن الكريم، ويعتبرون أن مفسري التفسير بالمأثور يجب أن يكونوا دقيقين في تفسيرهم وحذرين في ذكر المصادر التي يعتمدون عليها.

يُذكر أيضًا انتقاد لتفسيرات بعض الفقهاء والعلماء، مُدعين أنها غارقة في الإسرائيليات (الأساطير اليهودية والنصرانية)، ويُعتبرون أن هذا النوع من التفسيرات يُظهر مرونة وأسلوبًا غير دقيق في التفسير، مما يعرض فهمهم للانتقادات والشكوك، ويكون الرد على هذا النوع من الانتقادات بأن تفسير القرآن بالمأثور ليس مقتصرًا فقط على الروايات المروية عن النبي أو الصحابة، بل يشمل أيضًا تفسير التابعين ومن تبعهم، ويُشير إلى أن الأمثلة التي يُذكرها المنتقدون لهذا النوع من التفسيرات ليست كافية لتصنيفه بأنه مردود بالكامل، بل هناك جوانب تفسيرية أخرى تحتاج إلى النظر والتحليل.[2]

فيمكن أن يكون التفكير العقلاني والتأثر بالظروف الفكرية والثقافية المحيطة بالشخص سببًا في تقديم الآراء والانتقادات حول أساليب التفسير والمناهج الفكرية المعتمدة، في فترة تأليف تفسير ابن

---

[1] صبحي الصالح ، (٢٠٠٠)، مباحث في علوم القرآن ، القاهرة: دار العلم للملايين ، ط٢٤، ص٢٩١.

[2] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، (١٩٨٤) ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، تونس: الدار التونسية للنشر، ١/ ٣٢.

عاشور، كان الفكر العقلاني والتأمل في العقيدة والتفكير الديني قائمًا بشكل قوي.

لهذا السبب، فقد تكون رؤية ابن عاشور للتفسير بالمأثور قد تأثرت بتلك الظروف الفكرية والثقافية المحيطة به، ويعتبر تمحيص الشبه وتوضيح الضعف في الانتقادات الفكرية أو النقد للمناهج من أدوات البحث الفعالة لفهم الحقائق والأفكار.

ثانياً: أنواع التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور هو نوع من التفسير لا يعتمد الرأي، ولا دخل للمفسر بمعانيه في شيء، ولا يغيرها أو يأولها، وهو شامل الانواع التالية:

النوع الاول: تفسير القرآن بالقرآن:

ففي القرآن الكريم عندما يذكر موضوع معين في مكاناً ما، فأنه يعاد ذكره في اماكن اخرى لكن بطريقة مختلفة أو بتفاصيل أكثر توضيحاً أو توسعاً في الفكرة، وبالمثل، عندما يُذكر موضوع بشكل موجز في مكان، يُعاد ذكره في مكان آخر بتوضيحات وتفاصيل أكبر.[١]

إن هذا النوع من التفسير المأثور لا يدخل فيه رأي سوى لبيان الارتباط، ولكن من جانب المعنى لا يدخل له اجتهاد، لأن ما يطرأ على بهذا الشكل من التفسير يخرج عنه، أي أن المفسر لا يأتي بمعنى للآية ولكنه يربط لها بما قبلها، ليبنها، ولهذا فإن هذا النوع من التفاسير هو من باب تفسير المنقول بالمنقول للقرآن، ولا مدخل فيه للرأي.

فيقول ابن تيمية: " ويجوز بالاتفاق للمسلمين أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الآخرى، ويصرف الكلام عن ظاهره، إذ لا محذوف في ذلك عند أحد من أهل السنة، وإن سمى تأويل وصرف عن

---

[١] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) ،. مجموع الفتاوى، ٢٠٨/٢.

الظاهر، فهذا لدلالة القرآن له، ولموافقة السنة والسلف عليه، هذا لأن التفسير للقرآن بالقرآن ليس تفسير بالرأي"[1].

فما يقوم به العالم من الربط بين معنى لآية بآية أخرى لا يكون بهذا قد أدخله رأية فيها أو اجتهد، لأن هذا يحصل حتى في التفاسير للقرآن بالسنة في عدة مواضع مختلفة، وكذلك في تفسير القرآن بقول الصحابي.

فيشير ابن القيم، أن التفسير الذي جاء من النبي والصحابة هو الأولى من القبول ممن جاء بعدهم بتفسيرهم للقرآن بالقرآن، لانهم هم اعلم من في الأمة لمراد الله تعالى، لأنه تنزل عليهم، وهم من خوطبوا به في البداية، فشهدوا التفسير من النبي له بالعلم والعمل وهم الفصحاء في حقيقته، فلا يمكن العدول عن التفسير الذي ورد عنهم[2].

فيقول ابن تيمية كذلك: "من عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ بَلْ مُبْتَدِعًا وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ فَالْمَقْصُودُ بَيَانُ طُرُقِ الْعِلْمِ وَأَدِلَّتِهِ وَطُرُقِ الصَّوَابِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ قَرَأَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِتَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ لَهُ شُبْهَةٌ يَذْكُرُهَا إمَّا عَقْلِيَّةٌ وَإِمَّا سَمْعِيَّةٌ. كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ"[3].

النوع الثاني: تفسير القرآن بالسنة:

فأن السنة مفسرة للقرآن، وشارحة لمعانيه، فقد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: إن

---

[1] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) .، مجموع الفتاوى، ٦/ ٢١.

[2] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، المملكة العربية السعودية: مكتبة المعارف، د.ن، ١/٤٣٢.

[3] المرجع السابق: بن تيمية، مجموع الفتاوي، ٣٦٢/١٣.

كل ما حكم به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو من خلال لفهمه لآيات القرآن الكريم: قال الله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) [١].

وقال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون)[٢].

وقال تعالى: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)[٣].

وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: ((آلا إلي أوتيت القرآن ومثله معه))[٤] ، يعني السنة.

ومعنى ذلك ان السنة النبوية انزلت على سيدنا محمد بوحي كما انزل القرآن، ولكن لا تتلى بالشكل الذي يتلى به القرآن؛ بل تأتي عبر الأحاديث والسيرة النبوية التي تُروى وتُحفظ من خلال الرواة والمحدثين. فالسنة تحوي تعاليم وأحاديث وسنن نبوية تمثل الوحي النبوي وتعليمات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي تكمل وتوضح محتوى القرآن وتطبق تعاليمه، وقد تأكد الامام الشافعي، عليه بأدلة كثيرة وفي مواضع متعددة.[٥]

وعليه يبنى القول بأن كل ما قاله النبي الكريم يستفاد منه التشريع، فلا يمكن القوب بانه هناك سنة تشريعية وسنة غير تشريعية، لأن السنة كالقرآن الكريم، لأن النبي الكريم لا يقول سوى الحق، وقد أقر الله تعالى له بالأدلة على أن قوله حق، إلا ما جاء منه بالقول بالظن فهو حديث التلقي.

فقسم العلماء تصرف النبي في التفسير بأنواع وهي:

- التصرف على حسب البلاغة والرسالة.
- التصرف على حسب الفتيا.

---

[١] سورة النساء، الآية: ١٠٥.

[٢] سورة النحل، الآية:٤٤.

[٣] سورة النحل، الآية:٦٤.

[٤] فتح العلام، برقم (٧٧٥).

[٥] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) ،. مجموع الفتاوى، ص٢١٣.

- التصرف بحسب القضاء.
- التصرف بحسب الإمامة.

فلابد أن يعلم أن النبي الكريم قد بين المعاني القرآنية لأصحابه كما بين ألفاظه، فيقول الله تعالى: (لتبين للناس ما نزل إليهم)، أي هو شامل، فيقول أبو عيد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود : ((أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً))[1].

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ما يحتاج للبيان من القرآن الكريم، وهو ما قد رجع فيه من بعده للعلماء، لأن من القرآن من يعر فالعرب لمعناه مجرد معرفتهم للكلام، ومنه من تعذر علبهم بجهل، وهو ما يلزم العبد بالعبادة لله، ومنه ما يرجع فيه للعلماء، وهو ما أشكل واحتيج فيه للبيان للأحكام، ومنه ما لم يعرف الحقيقة له سوى الله تعالى، وهي صفات الله تعالى على سبيل المثال، فمعانيها معلومة ولكن حقيقتها لا يعلمها سواه تعالى، وعليه فلا يجوز المخالفة لهذا النوع من التفاسير لكونه جاء منقول عن النبي الكريم، ومأثور عنه فأي معنى لآية يأتي بها مخالف للمأثور فهو مضروب ومتروك، ولو جاء معنى يفسر الآية ولكن لا يخالفها بالتوضيح والتوسيع لها، هو من باب اختلاف التنوع وليس فيه حرج عند مراعاة الشروط في القبول للتفسير المأثور بها[2].

النوع الثالث: تفسير القرآن لقول الصحابي:

ان تفسير القرآن بقول الصحابة يعني الاستناد إلى تفسيرات وشروحات الصحابة للقرآن الكريم، وهم أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأول من استمع واستوعب القرآن مباشرة منه، لهذا فكان

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده ، أحاديث رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٢٣٤٨٢)، (٤٦٦/٣٨).

[2] محمد بن عمر بن سالم بازمول، التفسير بالمأثور مفهومه وأنواعه وقواعده، أم القرى، المملكة العربية السعودية، د.ن، ص١٠٩.

النزاع في التفسير للقرآن بين الصحابة قليل، ولكن بين التابعين أكثر ، وهو أقل لما بعدهم كذلك، ومن التابعين من نجدهم تلقوا التفاسير جميعها من الصحابة وربما قد تكلموا في بعضها بالاستنباط والأدلة[١].

فالصحابة كانوا يمتلكون فهماً عميقاً للقرآن وكانوا يستفسرون النبي صلى الله عليه وسلم عن معانيه وتفسيراته. وبعض الصحابة، مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود، كانوا معروفين بفهمهم العميق للقرآن وتفسيرهم الممتاز[٢].

وعبد الله بن عباس كان يعتبر "ترجمان القرآن" بفضل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له. وقد كان لفهمه وتفسيراته دور كبير في فهم معاني القرآن الكريم. بالإضافة إلى ذلك، هناك صحابة آخرون كان لهم مساهمات مهمة في تفسير القرآن استناداً إلى معرفتهم العميقة بالإسلام وتعاليمه[٣].

النوع الرابع: تفسير القرآن بقول التابعين أذا اتفقوا:

تفسير القرآن بقول التابعين يعني الاعتماد على تفسيرات وآراء التابعين، أي الجيل الذي جاء بعد الصحابة وتلقى العلم والفهم منهم مباشرة، وتجمع تلك التفسيرات على فهم عميق للقرآن استناداً إلى تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم وفهم الصحابة[٤].

فالتابعون كانوا طلاباً للصحابة وقد تلقوا تعاليم الإسلام منهم، ولديهم فهم متعمق للقرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، إذا وافقت أقوال التابعين بين بعضها البعض في تفسير معين، فتكون

---

[١] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني ، (١٩٨٠)، مقدمة في أصول التفسير، بيروت، لبنان: دار مكتبة الحياة، ص ٣٦.

[٢] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) .، مجموع الفتاوى، ص٢٠٨.

[٣] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) .، مجموع الفتاوى، ص٢٣٠

[٤] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) .، مجموع الفتاوى، ص٢٣٢

حجة قوية، لأنها تعتمد على الفهم المشترك والتفسير الذي نقلوه عن الصحابة والنبي صلى الله عليه وسلم[١].

لكن إذا اختلفت آراء التابعين في موضوع معين، لا يمكن أن يكون قول أحدهم حجة على الآخر، ولا يمكن لمن بعدهم أن يعتمد على أقوالهم كحجة، ما لم يكن هناك دليل في القرآن أو السنة يوضح الصواب.

المبحث الثالث: التدوين للتفسير بالمأثور ومراحله التي مر بها

تدرج التفسير بالمأثور وتدوينه:

لقد تدرج هذا النوع من التفاسير في دورية، أو في دور الرواية، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة ما يشكل عليهم من معاني القرآن الكريم، حيث قد تناول هذا النوع من التفاسير الصحابة فيما بينهم بالرواية، ولمن جاء من بعدهم من التابعين، ثم وجد مجموعة من الصحابة ممن قد تكلم في التفسير بالقرآن بما قد جاء له بالإثبات عن النبي الكريم، أو ما كان من رأيه واجتهاد، وكان هؤلاء هم قلة قليلة بسبب الروعة الدينية لهذا العهد، وما كانوا عليه من المستويات الرفيعة من عقولهم، والتحديد لاحتياجاتهم العلمية، وأن التفسير هو شهادة على الله بأنه قد عني بالألفاظ القرآنية، ثم جاء من بعدهم بعض التابعين ممن تصدى للتفسير، فقام بالرواية لما توصل له عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من قبل، ثم زاد عليه بقول أو برأي واجتهاد لما كان فيه من الغموض الذي يزيد بالتباعد الزماني عن عصر النبي الكريم وصحابته[٢]؛ ثم من بعدهم جاءت طبقات تلي التابعين وقامت بالرواية عنهم، ووضعوا فيه زيادات على مقدار الغموض فيه، وهكذا ظل هذا التفسير يتضخم عبر العصور من طبقة لطبقة، تروي كل طبقة عن الأخرى لما كان لديهم من الطبقات السابقة لهم، ثم جاء بعد ذلك التدوين للتفاسير، فنجد أن أول ما قد دون هو ما التفسير

---

[١] مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، (١٤٢٣هـ)، فصول في أصول التفسير، دار ابن الجوزي، ط٢، ص٧٢.

[٢] محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١/١١٢.

بالمأثور، بالتدرج في التدوين، فنجد رجال الحديث والرواية كانوا هم أول من قام به، بالوضع لكل علم لشخص معين بأن يعدوا واضع التفاسير أي الجامع له، حيث لم يتخذ التفسير في حينها شكل منظم، ولم يكن هناك افراد بالتدوين له، بل كان باب من أبواب الأحاديث يقومون على الجمع لما قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين من بعدهم.

ثم انفصل عن الحديث وأردت له مؤلفات خاصة به، جمعت عن الصحابة والتابعين منها: "تفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وإسحاق بن راهوية وروح بن عبادة وعبد بن حميد وأبي بكر بن أبي شيبة ، فكان من بعدهم ما قد عرف لنا عن هذا التفسير الصحيفة التي فردت لنا برواية عن علي بن أبي طلحة عم ابن عباس، والبخاري كذلك[١]، ثم وجد منها أجزاء قد دونت في التفاسير، منها ما نسب لأبي روف، والأجزاء الثلاثة التي رواها محمد بن ثور عن ابن جريح، وقد وجدت منها العديد من الموسوعات المؤلفة فيه، قامت على الجمع لكل ما وقع لأصحابها من التفسير بالرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين من بعدهم، منها: تفسير ابن جرير"، والذي زاد عن النقل لأقوال النبي والصحابة والتابعين فيه للتوضيح من التوجيه للأقوال والترجيح لبعضها والذكر للإعراب والاستنباط فيها، وغيره من التفاسير، وهذا التدوين لهذا النوع من التفاسير ظل لما بعد عصر ابن جرير لرجال محدثين قد بوبوا التفاسير كباب ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث[٢].

ثم وجد مجموعة يقومون على التدوين للتفسير المأثور دون الذكر لأسانيدهم، وأكثروا النقل للأقوال فيها دون التفريق بين ما هو صحيح وما هو عليل، فجعل الناظر فيها لا يركن لها فقد يكون منها مختلق، ثم تغيرت موجات الحياة فبعد أن كان التفسير لا يتعدى التفسير بالمأثور، تعدى للتفسير بالرأي ومن ثم التدرج فيه، كما سيأتي في الفصل التالي.

---

[١] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ٢٨/٢.

[٢] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١١٣/١

ومن الممكن البيان للمراحل التي مر بها هذا التفسير حتى تدوينه بشيء من التفصيل، على النحو التالي:

- المرحلة الأولى: التفسير النبوي:

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم هو أول من بين الفهم للقرآن الكريم وفسر له ولمعانيه، فيقول

الله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[1] ، فقد بين النبي الكريم ما يحتاجون لبيانه والتفسير لما اشكل فيه، وكان نوع من لتفاسير المجملة لما يتعلق بالأحكام بشكلها العام، فكان تفسير النبي الكريم إما نص صريح أو كان يبتدأ لأصحابه بالتفسير لآية، منها ما قد رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((قيل لبني إسرائيلَ : {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ}[2]، فبدَّلوا فدخَلوا البابَ يزحَفونَ على أستاهِهم وقالوا : حبَّةٌ في شَعرةٍ))[3].

ومنه ما جاء عن ابن جرير، عن أبي بن كعب، ((أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {وألزمهم كلمة التقوى} قال: "لا إله إلا الله"))[4].

ومنه ما قد جاء عن التفسير لسورة الفاتحة، عن عدي ابن حاتم، عن النبي صلى اله عليه وسلم، قال: ((اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضُلَّالٌ))[5]، وهو حديث مروي في تفسير قول الله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)[6]، فعن عدي ابن حاتم، قال : قد

---

[1] سورة النحل، الآية:٤٤.

[2] سورة البقرة، الآية: ٥٨.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، باب وقولوا حطة، حديث رقم (٤٦٤١)، (٦٠/٦).

[4] أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث طفيل بن أبي كعب، عن أبيه، حديث رقم (٢١٢٥٤)، (١٧٦/٣٥).

[5] أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عله وسلم، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، حديث رقم (٢٩٥٤)، (٧١/٥).

[6] سورة الفاتحة، الآية:٧.

سالت النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير للآية السابقة، فقال له: (غير المغضوب عليهم)، هم اليهود، (ولا الضالين)، فقال هم: النصارى فهم ضالين[1].

مميزات هذه المرحلة من التفسير:

تتميز هذه المرحلة بأنها قطعية، فقد قال ابن تيمية: " وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ اعْتِصَامُهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَكَانَ مِنْ الْأُصُولِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ أَنْ يُعَارِضَ الْقُرْآنَ لَا بِرَأْيِهِ وَلَا ذَوْقِهِ وَلَا مَعْقُولِهِ وَلَا قِيَاسِهِ وَلَا وَجْدِهِ فَإِنَّهُمْ ثَبَتَ عَنْهُمْ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّاتِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَنَّ الرَّسُولَ جَاءَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ[2]".

- المرحلة الثانية: التدوين للتفسير المأثور في النسخ والمصنفات الحديثية والتفسيرية:

وقد دون التفسير بعد ذلك في الصحف والأجزاء المستقلة، حيث تم تدوين أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، حيث ظهرت النسخ التفسيرية للأئمة المتقدمين، ولكن لم تكن شاملة لتفسير الآيات جميعها، بل بعض منها.

فمنها صحيفة على ابن أبي طلحة التي سبق الإشارة لها، التي روي فيها عن ابن عباس، فقال بن حنبل: " في مصر صحيفة للتفسير برواية عن على بن أبي طلحة لو رحل رجل لمصر قاصداً ما كان كثيراً، وروى الحجاج بن محمد عن ابن جريج نحو جزء، وهو صحيح، وتفسير ابن عطاء بن دينار يكتب ويحتج به، وتفسير روق جزء وصحح، وتفسير السدي، وهو الأمثل لها، لأنه يورد فيه بأسانيد عن ابن مسعود وابن عباس"[3].

---

[1] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (١٩٧٤)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٤٧٤/٢.

[2] المرجع السابق: أحمد بن تيمية ، (١٤٢٥هـ) .، مجموع الفتاوى، ٢٨/١٣.

[3] أبو يعلى الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني، (١٤٠٩هـ)، الإرشاد في معرفة علماء الحديث، تحقيق: محمد سعيد عمر إدريس، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ٣٧٦/١.

ونجد تفسير ابن هارون وشعبة بن الحجاج، ووكيع بن الجراح، سفيان الثوري، و سفيان بن عيينة، وادم بن أبي إياس، ويحيى بن سلام، وسنيد بن داود، وابن أبي نجيح، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وغيرهم.

ثم جاء التدوين لهذا التفسير من ضمن كتب الحديث، فنجد المحدثون من تخصصوا في الرواية لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم والجمع لها، ن البخاري ومسلم وأصحاب كتب السنن، قد أفردوا لها باباً في كتبهم، فقاموا على الجمع لما روي في عن النبي الكريم والصحابة، والتابعين، في تفسيرهم للقرآن، فنجد في " صحيح البخاري"، و " مسلم"، باباً للتفسير، ومثلها في كتب السنن، وهو مؤسس على ما سبق من التدوين في التفاسير في صحف ونسخ، ولكنها لم تأخذ شكلها المألوف لها[1].

- المرحلة الثالثة: التدوين للقرآن كامل في كتب التفاسير:

لقد تم التدوين للتفاسير بشكل كامل ومنفصل عن كتب الحديث بشكل مستقل في كتب خاصة بها، لها مؤلفيها، وقد جمعوا ما قد روي عن النبي الكريم وصحابته والتابعين وأتباع التابعين بشكل مرتب بحسب الترتيب للمصحف الكريم، فبينوا في البداية " تفسير الفاتحة"، ثم البقرة وآل عمران من بعدها، وهكذا على حسب ترتيب المصحب وسورة وصولاً لسورة الناس.

وكان هذا يد مجموعة من العلماء منهم: "يحيى بن سلام، الفريابي، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن جرير الطبري، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، وأبو الشيخ"، وغيرهم من أئمة هذا الشأن، وجميعها كانت سير رويت بالإسناد للنبي الكريم، ولصحابته

---

[1] محمد بن عبد الله بن علي الخضري، (٢٠١٧)، التفسير بالمأثور في مختلف العصور – دراسة مقارنة– حده حقيقته ودفع الشبهات عنه، المملكة العربية السعودية: مجلة التبيان للدراسات القرآنية، ع٢٥، ص١٠٨.

التابعين وتابعي التابعين من بعدهم، ولم فيهم أي شيء سوى التفسير بالمأثور، سوى ابن جرير الذي أضاف بعض الإضافات التي سبق الإشارة لها من قبل.

➢ المرحلة الرابعة: الاختصار للأسانيد:

يقول السيوطي: بعد ذلك ألف للتفسير خلائق عديدة، فقاموا بالاختصار للأسانيد، ونقلوا للأقوال بشكل مبتور، فأدخل فيها الدخيل والالتباس لما هو صحيح بما هو معتل، فصار كل من له قوله في خاطره يورده فيها، ومن خطر بباله شيء يعتمد له، فينقل من بعده ناقل ظان بأثله، دون الالتفات للتحرير لما ورد عن السلف الصالح، ومن رجع لهم في تفسيره[١].

ثم ما جاء في هذا المحور وذاد عليه الهبي من القول الذي ذكرته من قبل، فيه تشكيك كبير بالتفاسير السابقة[٢]، ولا دليل علمي يستند عليه في قوله خاصة أن هذه المرحلة كان بها مؤلفين وأئمة للتفاسير كبار وأعلام للأمة، منهم البغوي وابن الجوزي وابن عطية.

فيقول الخضري رداً على ما ورد من الذهبي في هذا الأمر: " أن المطالع لمصنفاتهم يجد أنهم قد نقلوا علم التفسير إلئ مرحلة متقدمة، فقد اختصروا ما وجدوه في كتب التفسير المأثور المروية بالأسانيد، فحذفوا أسانيدها، واقتصر وا علئ رواتها، كما حذفوا المكررات وأشاروا إليها أحيانا إشارات، ورجحوا بين الأقوال، وألفوا بين الروايات المختلفة، وبينوا مواطن الإشكال، إلى غير ذلك من المحاسن الجمة التي اشتملت عليها كتبهم، فكانت هذه المرحلة مرحلة تحقيق وتمحيص، لا . تخليط"[٣].

---

[١] المرجع السابق: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٢٤٣/٢٤.

[٢] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١١٣/١

[٣] المرجع السابق: محمد بن عبد الله بن علي الخضري، التفسير بالمأثور في مختلف العصور – دراسة مقارنة– حده حقيقته ودفع الشبهات عنه، ص١١٠.

ضعف الرواية لتفسير المأثور:

إن التفسير بالمأثور شامل للتفسير للقرآن بالقرآن، وبالسنة، وما كان له بالموقوف على الصحابة أو المروي من خلال التابعين، فكلاً من التفسير للقرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة، فهو لا خلاف في القبول له، لكونه لا يتطرق له الضعف ولا الشك فيه، ولكن ما أضيف للنبي الكريم وفيه ضعف في السند أو المتن فهو مردود ولا يقبل مدام ثبت عدم صحته في النسبة له للنبي صلى الله عليه وسلم. ويشير الذهبي بقوله في هذا الأمر: ولكن التفسير للقرآن بما روي عن الصحابة والتابعين فهو ما قد تسرب له الخلل، والتطرق للضعف حتى قد كاد هذا يفقدنا الثقة فيما قد روي، لولا أن قيض الله تعالى للتراث العظيم بالإزاحة للشكوك عنه، فسلمت منه كمية لا يمكن الاستهانة بها، حتى إن كان السقيم منه والصحيح لا يزال مختلط بكثير من الكتب التي قد اعتني أصحابها بالجمع لشتات الأقوال[1].

وكان كثرة ما روي عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما نم ذل كقرة تحاوزت الحد، حيث أن كلا منهما أكبر عامل من عوامل الصرف للنظر والبحث والتمحيص ولنقد والتعديل والتجريح، حتى أنه نقل عن الإمام الشافعي قوله: " لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث" [2]، وهو دال على مبلغ ما دخل من التفسير بشكل نقلي من الروايات المكذوبة والمصطنعة.

وسأتطرق للأسباب التي أوردها الذهبي في التضعيف للتفسير بالمأثور بشيء من التفصيل:

أسباب ضعف رواية التفسير بالمأثور:

ويمكن الارجاع لضعف رواية التفسير بالمأثور لأمور ثلاثة وهم:
أولها :كثرة الوضع في التفسير.

---

[1] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١/١١٥.
[2] حسن محمد أيوب، (٢٠٠٤)، الحديث في علوم القرآن والحديث، الإسكندرية-مصر: دار السلام، ط٢، ص١٤١.

ثانيها :دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها :حذف الأسانيد.

<u>أولها</u> :كثرة الوضع في التفسير :

لقد بدأ الوضع في التفسير مع النشأة للحديث، لأنهما في البداية كانوا مزيج لا نجد احدهما مستقل عن الآخر، والمبدأ في ظهوره ٤١ هـ، وأسبابه لها عوامل منها: " التعصب المذهبي"، بالأخص بعد الظهور لعديد من الطوائف والمذاهب العقائدية والفكرية ومنهم الشيع والخوارج، فنجد الشيعة قد نسبوا للنبي صلى الله عليه وسلم ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من آل البيت أقول متعددة عن التفسير تكون شاهدة لمذهبهم، فتعصبوا لمذهبهم وأهوائهم، ودخل من دخل للإسلام وهو متبطن للكفر والكيد للإسلام، والتضليل فيه، فأضافوا فيه روايات باطلة يصلوا من خلالها لأغراض عديدة خبيثة وسيئة.

فتطرف الشيعة بعد تفرقهم عن الأمة بالحب لعلي، وانصرفوا عنه ونصبوا أعداء له، ونجد جمهور المسلمين ممن وقفوا بجانب كلا المذهبين دون أن يمسوا بشيء من الابتداع من التشيخ، جعلت كل طائفة منهم تحاول أن تجعلها مؤيدة لها بشيء من القرآن، فنجد منهم من نسب للنبي صلى الله عليه وسلم ولعلي وغيره من آل البيت رضي الله عنهم، العديدة من الأقوال في التفاسير لتكون شاهده لمذهبهم، كما قام الخوارج بوضع كثير من التفاسير الشاهدة لمذهبهم، ونسبوه كذلك للنبي أو الصحابة، وكان هذا القصد من كلا الفئتين الترويج للمروي والإمعان في عملية التدليس، فالنسبة للمروي للنبي أو للصحابة يكون ثقة لكون المروي مورث عنهم، ولا يكون سوى من النبي أو الصحابة[١].

[١] القنيطرة، (٢٠٢١)، التفسير بالمأثور، جامعة ابن طفيل، شعبة الدراسات الإسلامية، ص٦؛ محمد بن محمد بن سويلم أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ط٤، د.ن، ص٧٥.

ويشير الذهبي: إلى اللون السياسي، حيث قد ترك أثر في وضع التفسير، فنجد المروي من علي وابن عباس رضي الله عنهما جاوز الحد من الكثرة، مما يجعلنا نميل بالقول في كونه موضوع عليهما أكثر مما روي عنهم أو وضع عن غيرهم، والسبب أن علي وابن عباس من بيت النبوة، فالوضع يكون عليهما مكسب للثقة والقبول والتقديس[١]، بالإضافة لأن علي كن له عند الشيعة ما لا نجد عند غيره، فنسبوا له العديد من الأقوال في التفسير، وبن عباس من نسله الخلفاء العباسيون، فتزلف لهم الناس وتقرب بكثرة ما يروى لهم عن جدهم ابن عباس مما يجعل اللون السياسي فيه أظهر في وضع التفسير[٢].

وكان الوضع في التفسير بالمأثور بسبب الكثرة الذي دخلت فيه ودست عليه، فضاع الكثير منه، لأن ما قد أحاط به من الشكوك أفقد الثقة به، فردت كل رواية تطرق لها ضعف وقد تكون في ذاتها صحيحة، بالإضافة لاختلاط الصحيح منها بالسقيم، جعل من يقوم بالنظر فيها ممن ليس لديه القدرة بالتمييز بين الصحيح والمعتل ينظر له جميعه بعين واحدة، فيحكم عليه جميعه بالصحة، فقد يجد روايتين متناقضتين لمفسر واحد فيتهمه بالتناقض، ويتهم المسلمين بقبولهم لها[٣].

فقد ساعد ذلك في ايراد العديد من الشبهات في التفسير، حيث يقول الأستاذ "جولدزيهر": " وإنما لمما يلفت النظر في هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهي أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهي في نفسها تظهر في تضاد شديد بينها وبين بعضها، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق"[٤].

---

[١] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١/١١٦.

[٢] حسن محمد أيوب، (٢٠٠٤)، الحديث في علوم القرآن والحديث، الإسكندرية-مصر: دار السلام، ط٢، ص١٤١.

[٣] محمد علي الحسن، (٢٠٠٠)، المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ص٢٦٨.

[٤] اجنتس جولد تسهير، (١٩٤٤)، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، ترجمة: على حسن عبد القادر، لندن: مطبعة العلوم بالخليج، ط١، ص٧٩-٨١.

ثم يقول: " أن كل فريق يعتمد في رأيه على إسناد متصل بابن عباس يدعم به رأيه، فالإسحاقيون عن عِكرمة، والإسماعيليون عن الشعبي أو مجاهد، كل أُولئك سمعوا ذلك عن ابن عباس، وكل ادَّعى بأن هذا هو رأيه في هذه المسألة".

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما قع فيه من اللعب والخداع : "ومن الملاحظات التي أبديناها، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة :وهى أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحده تامة أو كياناً قائماً، فإنه قد تُروى عن الصحابة في تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة وفى أغلب الأحيان يناقض بعضها بعضاً من جهة، ومن جهة أخرى فقد تُنسب للصحابي الواحد في معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة، وبناء على ذلك، يُعتبر التفسير الذي يخالف بعضه بعضاً، والمناقض بعضه بعضاً، مساوياً للتفسير بالعلم"[1] .

فجميعها محاولات منه للتشويه بالتفسير المأثور ولكنها محاولات بائت بالفشل وخاصة لما كان يظهره عن ابن عباس وتفسيره بالأخص، بمظهر الشخص المناقض لنفسه في ذات الكلمة أو ذات الموضع، كما أن ابن جرير ملتزم بالصحة في ما ينقله ومن الروايات، فكان المرجع لإثبات فشل هذه المحاولات منه[2].

أما بالنسبة للقيمة لهذا التفسير:

عند النظر في هذا التفسير من الجانب الذاتي بغض النظر عن الجانب الاسنادي، فنجده لا يخلو من القيم العلمية، لان الوضع مهما كثر فيه فالوضع منصب على الرواية ذاتها، ولكن التفسير نفسه ليس أمر خيالي أو مستبعد عن الآيات، ولكنه في الأغلب يكون صحيح، ولكنه أراد لرأية رواج

---

[1] المرجع السابق: اجنتس جولد تسهير، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، ص٨٢.

[2] المرجع السابق: حسن محمد أيوب، (٢٠٠٤)، الحديث في علوم القرآن والحديث، الإسكندرية–مصر: دار السلام، ط٢، ص١٤٤.

وقبول فنسب ما نسب له من الصحابة، فالموضوع من التفسير ليس بخيال أو وهم بل له أساسه فينبغي على الناظر في التفسير والدراسة له، لما له من القيمة الذاتية حتى لو كانت غير إسنادية.

<u>ثانيها:</u> دخول الإسرائيليات فيه:

إن لفظ الإسرائيليات يطلق والمراد منه ما قد تأثر التفسير منه من خلال الثقافة اليهودية والنصراينة، وما يعم هذان اللونان في التفسير، ولو كان في ظاهره يدل على اللون اليهودي للتفسير، وما كان لهذه الثقافات من مظاهر دينية، وهو من باب التغليب لليهود على النصارة، وإلا كان لكل منهما لون مختلف وثقافة دينية لها أثر في حد ذاتها على التفسير، فنجد أن ثقافة اليهود في أساسها مبنية على التوراة، فيقول تعالى: (إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)[1]، والأسفار الموسوية مما يندرج تحت مسمى " العهد القديم"، بالإضافة لتراث اليهود الشفهي المصطلح عليه باسم: " التلمود"[2]، لكن النصرانية مبنية على الأناجيل وهي ما يصطلح عليها : " العهد الجديد"، وبالنظر لكلا الثقافتين نجد انهما اشتملا على القرآن الكريم وبالأخص قصص الأنبياء عليهم السلام، بالاختلاف من حيث الإجمال فيها والتفصيل، لهذا كان التوراة، فيقول سبحانه: (ثمَّ قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإنجيل)[3]، والإنجيل متناول لها بالتواريخ والوقائع والأسماء، والسرد للأحداث، ولكن نجد القرآن نحا الجانب الإجمالي فيها بالذكر لمواضع الموعظة والعبره.

إن إدخال الاسرائيليات في التفسير هو أمر ليس بجديد فنجده من عهد الصحابة، ولكنهم لم يسألوا أهل الكتاب في كل شيء، بل يسألون عن أشياء لا تعد أن تكون على سبيل التوضيح للقصة والبيان للمجمل منها، ولا يحكمون بالكذب أو الصدق مدام احتماله للأمرين وهو امتثال لقول النبي صلى

---

[1] سورة التوبة، الآية:٤٤.

[2] المرجع السابق: محمد بن محمد بن سويلم أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ط٤، د.ن، ص٧٢.

[3] سورة الحديد، الآية:٢٧.

الله عليه وسلم : ((لا تُصَدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم))[1]، وقولوا: (آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا)[2]، كما أنهم لم يسألوا عن شيء متعلق بالعقيدة أو بالأحكام، اللهم إلا إذا كان للاستشهاد لما جاء من القرآن، فلا يقبلوا ما يقال لهم بل يتحرون الصواب منه قدر المستطاع ويردون أقوالهم عليهم لو لم توافق الصواب، ولم يخرجوا عن دائرة الجواز المحددة من قبل النبي الكريم، وما فهموه من الاباحة في قول النبي : ((بلِّغوا عنى ولو آية، وحَدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج، ومَن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[3]، فالنبي الكريم لا يجيز أن يكون هناك تحدث بالكذب، فمعنى الحديث: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون أنه كذب، ولكن ما تجوزونه فليس فيه حرج عليكم بالتحدث فيه.

فالإسرائيليات التي اتخذها المفسرون من أهل الكتاب والشرح لها بالكتاب الكريم لها أثر سيء في التفسير لان الأمر لم يتوقف على هذا النحو في عهد الصحابة بل زادوا فيه فرووا كل ما جاء صدق كان أو كذب، بل دخل كثيرا منه في القصص الخيالية والمخترعة مما جعل من ينظر لكتب التفاسير هذه بانه لا يكاد يقبل منها شيء لاعتقاده أن جميعها واحد.

وقد تقسم الاسرائيليات إلى ثلاثة وهم :

- ما يعلم بالصحة فيه بأن نفيل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقل صحيح أو كان له شاهد يؤيده في الشرع وهو مقبول وصحيح.
- ما يعلم بكونه كذب ويناقض ما قد عرفناه من الشرع أو لا يتفق مع العقل وهو لا يصح القبول له ولا لروايته.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، حديث رقم (٢٦٨٤)، (١٨١/٣).

[2] سورة المائدة، الآية:٥٩.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٤٦١)، (١٧٠/٤).

- ما هو مسكوت عنه ولا هو صحيح ولا مرفوض، فنتوقف هنا فيه ولا يرفض أو يكذب، وتجوز الحكاية عنه ، وهو من الأمور التي لا تعود لها فائدة دينية، لهذا قد اختلف فيه اختلاف كثير بين المفسرين[١].

ثالثها: حذف الأسانيد:

إن الحذف للإسناد هو من الأسباب التي بها يرجع الضعف للتفسير بالمأثور هذا لأن الصحابة كانوا يتحرون الصحة في كل ما يتحملونه، فكان منهم لا يروي حديث إلا وهو مثبت، ولم عنهم أنهم يسألون عن الاسناد لكونهم عرفوا بالعدالة، ثم كان عصر التابعين من بعده وفشا فيه الوضع وظهر جلياً، فلا يقبلوا حديث سوى بالإسناد الصحيح له والعدالة لرواتهن ومنها المرويات التفسيرية ثم دون وصنفت فيه التصانيف دون فيها أصحاب كل منها ما قد جمع لهم من أقوال النبي الكريم والصحابة والتابعين من بعده، مع ذكر الاسانيد فيهم، ثم من بعدهم أقوام فألفوا في التفسير، ثم كان كل من يسنح له القول يورده فيها ومن خطر بباله شيء اعتمده فيها، فجاء من بعده الظنون والشكوك في أصله[٢].

وهو من أخطر الأسباب جميعها لأن الحذف للأسانيد جعلها لمن ينظر فيها ظان لصحتها وما جاء فيها، فجعل العديد من المؤلفين ينقلون عنها وما بها من الإسرائيليات والقصص وما به من اختراعات ليست لها صحة بالرغم من المخالفة للنقل فيها مع العقل.

ومن أهم كتب التفسير بالمأثور:

- الدُرُّ المنثور في التفسير المأثور للسيوطي.
- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى
- معالم التنزيل لأبي محمد الحسين ن مسعود الفراء البغوي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي.
- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي.

---

[١] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١٣٢/١.

[٢] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١٤٦/١.

الفصل الثاني: التفسير بالرأي

مفهوم التفسير بالرأي:

إن الرأي يطلق على الاعتقاد، وهو الاجتهاد والقياس، أي أن أصحاب هذا التفسير هم أصحاب قياس، أي أن هذا التفسير هو تفسير اجتهادي للقرآن الكريم بعد أن يعرف المفسر لكلام العرب ومناحي القول لهم، والمعرفة للألفاظ العربية وما لها من دلالات، والاستعانة بالشعر الجاهلي والوقوف على الأسباب لنزول الآيات والناسخ منها والمنسوخ، وغيرها من الأدوات التي يحتاج لها المفسر والتي تكون سبيل لمساعدته في الاجتهاد برأيه في التفسير للآيات القرآنية.

وقد عرف العلماء الاجتهاد بالرأي تعاريف مختلفة منها:

تعريف الزرقاني: أن المراد منه هو الاجتهاد، ويؤول إلى التفسير للقرآن بالاجتهاد[1]، وقيل إن المراد منه: " التفسير بالعقل والاجتهاد"،[2] وهو موافق لتعريف الزرقاني في لفظ العقل.

وقد قيل أنه: العمل للمفسر بعقله في الفهم للقرآن والاستنباط منه باستخدام آلات الاجتهاد.[3]

اختلاف العلماء في جواز التفسير بالرأي:

يقول الذهبي: " جرى التفسير منذ زمن النبوة إلى زمن أتباع التابعين، على طريقة تكاد تكون واحدة، فخَلَف كل عصر يحمل التفسير عمَّن سلف بطريق الرواية والسماع، وفى كل عصر من هذه العصور، تتجدد نظرات تفسيرية، لم يكن لها وجود قبل ذلك، وهذا راجع إلى أن الناس كلما بعدوا عن عصر النبوة ازدادت نواحى الغموض فى التفسير، فكان لا بد للتفسير من أن يتضخم كلما مرَّت عليه السنون"[4].

---

[1] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ١/ ٤٩.

[2] خالد عبد الرحمن العك، (١٩٨٦)، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، ط٢، ص١٦٨.

[3] نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٩٩٣)، علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ص٨٥.

[4] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ٢٥٨/١.

فلم يكن هذا النوع من التضخم في التفسير سوى محاولات عقلية من قبل المجتهدين فيه فقد قام بها أفراد ممن اعتنوا بهذا الجانب من التفسير باستخدام العقل ولم تخرج بهم عن قانون اللغة ولم يتخطوا الحدود الشرعية فيه بل ظلوا محتفظين بالصبغة العقلية الدينية فيه، فلم يتجاوزوا بآرائهم دوائر الرأي المحمود إلى دائرة الرأي المذموم فيه مما لا يكون متفق مع الشرع وقواعده، وظلوا كذلك حتى ظهرت الفرق المذهبية بمختلفها وتنوعها ووجد علماء يناصرون كلا منهم لمذهبه وظهر التنوع الديني وكل منهم ينافس على عقيدته فيها، فالقرآن هو الهدف الأولي لكل منهم بما يقصدونه من الجمع له والتفسير، فكل منهم يبحث في القرآن ليجد به ما يقوي رأيه ومذهبه وكلا منهم يجد ما يهدف له ولو بطريق الإخضاع للآيات للمذهب المتبع له، والميل به لما هو تابع للرأي والهوى والتأويل مما يجعله منافي للمذاهب الأخرى التي تتعارض معه[١].

فاختلف العلماء في هذا النوع من لتفسر وقد عارضه البعض منهم، فقالوا أن هذا التفسير يعتمد فيه المفسر على رأيه الخاص والاستنباط للمعاني والتأويلات من النصوص الدينية بالرأي المجرد للمفسر دون الالتزام بروح الشريعة ويعد ذلك خطراً كبيراً لأنه يتيح لأي شخص أن يفسر النصوص الدينية على أهوائه الشخصية أو أن يتلاعب بمعاني النصوص والكلمات، ويكون الخطر الاكبر في وضع مذاهب دينية خاطئة بدون أصل شرعي وارد عن نص ديني واضح فسرته السنة او أحد الصحابة، وأن تكون أراءهم مذاهب بعد ذلك يتبعها الناس وهي لا أصل ديني لها، حيث أن المفسرين الذين يستخدمون هذا النوع من التفسير هم من يحاولون اختلاق البدع مثل المعتزلة، ووضع اراء دينية غير صحيحه كي تتناسب مع افكارهم ومذاهبهم دون أن يكون لهذه التأويلات أصل من القرآن أو السنة أو وارد عن الصحابة والتابعين[٢].

---

[١] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ٢/ ٢٨٥.

[٢] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١٨٣/١.

وهناك خطر كبير في تفسير القرآن بمجرد الرأي أو الاجتهاد من دون علم مبني على أصول صحيحة ونصوص موثوقة، وتشير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى أن الإنسان لا ينبغي له التعامل مع الدين أو القرآن إلا بالعلم والدليل الصحيح، والأجيال الأولى من المسلمين أي السلف، كانوا يتحاشون التعليق على آيات القرآن أو تفسيرها إذا كانوا لا يعرفون أو لا يمتلكون علمًا واضحًا بها، ويُروى أن يحيى بن سعيد وسعيد بن المسيب كانا يمتنعان عن الإدلاء بتفسير الآيات القرآنية إذا كانا غير متأكدين من معانيها[١]، ومن النصوص المذكورة أيضًا، تقديم أبي عبيد القاسم بن سلام حين سئل أبو بكر الصديق عن تفسير كلمة "أبّا" في قول الله تعالى: (وَفَاكِهَةً وَأَبّاً)[٢] ، فتجنب الإدلاء بتفسيرها لعدم وجود لديه علم مؤكد بها[٣]، وهذا هو الجانب المتشدد في موقفه من هذا التفسير.

بينما نجد قوم آخرين رأوا العكس وأنه لا باس بالتفسير للقرآن بالاجتهاد، وأن كل من له أدب وسيع فليوسع له ويفسر بالقرآن وبالرأي وبالاجتهاد فيه، ونجد ان كلا الطريفين على نقيض من بعضهما البعض وكلاً منهما يسوق الأدلة على رأية، فنجد الفريق الأول: يستدلوا بأنه قول على الله بدون علم من المفسر فيه، والقول على الله بدون علم منهي عنه، وعليه يكون هذا التفسير منهي عنه، وأنه على سبيل المثال يقول في قوله تعالى: (وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[٤]، بأنه معطوف على من قبله من المحرماتفي قول الله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)[٥]، وكذلك قوله: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[٦]، وهذا فيه ظن.

---

[١] المرجع السابق: نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٩٩٣)، علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ص٨٥.

[٢] سورة عبس، الآية:٣١.

[٣] المرجع السابق: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، د.ن، ٥٠/٢.

[٤] سورة البقرة، الآية: ١٦٩.

[٥] سورة الأعراف، الآية:٣٣.

[٦] سورة الاسراء، الآية:٣٦.

بينما المجيزون لهذا النوع من التفاسير ردوا عليهم، فقالوا نمنع ما ذهبوا له من المانعون لأن الظن نوع من لعلوم، لأنه إدراك للطرف الراجحج، ويمنعون ما احتجوا به من الآية الكريمة بأن الظن فيه منهي عنه لو أمكن الوصول لعلم يقيني وقطعي، بأن وجد نص قطعي من نصوص الشرع، أو أي دليل عقلي موصل له، أما لو لم يوجد شيء من هذا فالظن فيه يكفي لأنه مستند لدليل قطعي من الله تعالى على الصحة بالعمل به[1]، فيقول سبحانه: (لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)[2]، وكذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((جعل الله للمصيب أجرين وللمخطئ واحداً))[3].

ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : ((فبِمَ تحكم؟ قال :بكتاب الله، قال :فإن لم تجد؟ قال :بسُّنَّة رسول الله، قال :فإن لم تجد؟ قال :أجتهد رأيى، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال :الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يُرضى رسول الله))[4].

وعلى كل من اشتغل بهذا العلم أن يبتعد عن التهجم في التبيين لمراد الله في كلامه بجهالة بقوانين اللغة العربية والشريعة، ومنها الحمل لكلام الله تعالى لمذاهب فاسدة والخوض فيما استأثر به تعالى لعلمه والقطع بأن مراده تعالى لشيء معين دون دليل عليه والسير على الهوى واستحسانه.

---

[1] فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي، (١٤٣٦)، التفسير بالرأي مفهومه والشبهات المثارة حوله- دراسة على كتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهير، مجلة جامعة طيبة، م٥، ع٩، ص١٩.

[2] سورة البقرة، الآية:٢٨٦.

[3] اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أز أخطأ، حديث رقم (٧٤٥٢)، (١٠٨/٩).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، حديث رقم (١٤٩٦)، (١٢٨/٢).

المبحث الأول: اتجاه التفسير الفقهي:

مفهوم التفسير الفقهي:

إن هذا النوع من التفاسير هو علم يهتم بالتتبع لآيات القرآن الكريم التي تشتمل على الأحكام القرآنية فيقوم بالاستنباط لمختلف المسائل منها ويبين المعاني المرتبطة بها، لهذا يمكن التعريف لهذا التفسير بأنه:

عرفه نور الدين: بإن التفسير الفقهي وهو تفسير يعني فيه بالدراسة لآيات الأحكام والبيان لكيفية الاستنباط للأحكام منها[1].

بينما عرفه الصباغ بأنه: التفسير الذي يتولى موضوع الأحكام الفقهية عناية خاصة بها[2].

ويتضح أن تعريف نور الدين مميز بدقة عالية في التوضيح لمعنى التفسير الفقهي، من الدقة لفهمه والعمق في الاستنباط والسماح بالإعمال الذهني للمناقشة فيه والموازنة بين الآراء المختلفة به، مما يبين أهميته الكبرى والالزام بالاعتناء به.

نشأة التفسير الفقهي:

فهذا التفسير بدايته ترجع لعهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث فسر العديد من الآيات القرآنية للصحابة وبين أحكامها بأنواع البيان المختلفة، ثم كان الصحابة من بعده جاءوا يعالجون ما قد جد لهم من الأمور، فبحثوا في البداية في كتاب الله تعالى ثم السنة النبوية الطاهرة، ثم الاجتهاد منهم، فتوقع الاختلاف في الاجتهاد من قبلهم في الفهم للآيات والاستنباط للأحكام المتعلقة بها.

يقول الذهبي: " نزل القرآن الكريم مشتملاً على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأُخراهم، وكان المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفهمون ما

---

[1] المرجع السابق: نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٩٩٣)، علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ص١٠٣.

[2] محمد بن لطفي الصباغ، (١٩٩٠)، لمحات في علوم القرآن واتجاهات المفسرين، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ص٢٢٤.

تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية، وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم جدَّت للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكماً شرعياً صحيحاً، فكان أول شيء يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم، ينظرون في آياته، ويعرضونها على عقولهم وقلوبهم، فإن أمكن لهم أن يُنزلوها على الحوادث التي جدَّت فبها ونعمت، وإلا لجأوا إلى سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يجدوا فيها حكماً اجتهدوا وأعملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسُّنَّة، ثم خرجوا بحكم فيما يحتاجون إلى الحكم عليه"[1].

ومنها: ما وقع في الاختلاف في عدة المطلقة هل حسابها بالحيض أم بالطهارة، فذهب عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود إلى أنها الحيض، وذهب عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والسيدة عائشة إلى أنها الأطهار، والسبب في هذا أن القروء في قوله تعالى: (وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ)[2]، تحتمل في لغة العرب أن تفسر بالحيض، وبالأطهار، فكل فريق التمس قرينة رجح ما ذهب له بها.[3]

ومنها: الخلاف الذى وقع بين ابن عباس وزيد بن ثابت في تقسيم ميراث مَن مات عن زوج وأبوين، فابن عباس رضى الله عنه أفتى بأن للزوج النصف، وللأم الثلث، وللأب الباقي تعصيباً، وتمسكاً بظاهر قوله تعالى في الآية: (فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثلث)[4]، وزيد بن ثابت رضى

[1] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ٣١٩/٢.

[2] سورة البقرة، الآية:٢٢٨.

[3] أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (١٩٦٤م)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١١٢/٣.

[4] سورة النساء، الآية:١١.

الله عنه ومعه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقي بعد فرض الزوج، نظراً لأن الأب والأُم ذكر وأُنثى ورثا بجهة واحدة، فللذكر مثل حظ الأُنثيين.

حيث كان الصحابة رضي الله عنهم متجردين لقول الحق وطلبه ولا يحيدون عنه أبدً، وربما قد تناظروا فلو اقتنع منهم واحد برآي الأخر يأخذ به وإلا عذر كل منهم آخاه في الاجتهاد ووسع له فيه، واستمر الحال على هذا المنوال في الاجتهاد للأئمة التابعين من بعدهم مثل الأئمة الأربعة، ولكن قد ازداد الواقع المستجد بالمسائل التي تستنبط من القرآن الكريم، حيث قد توسعت الدراسات التفسيرية لآيات الأحكام، وبدأ بظهور المذاهب ببنيانها الضخم الذي أصل بأصول اجتهادية عظيمة وتم التدوين له ذاع بين الناس التأثر بكل مذهب، كما تأثر من قبل بفقهاء الصحابة على طوائف من التابعين لهم والصحابة، ولكن العصور بعدها شهدت توسع في المناقشات وشهدت تأييد لكل فريق في مذهبه الذي اعتق فيه وبصدقه، وجر هذا التشديد للنقد على المذاهب التي تخالفه المنهج العلمي في البحث، بالأخص في القرن الرابع الهجري وما بعده حيث قد ظهرت المناظرات الكلامية في هذا التوقيت[١].

وعليه يمكن القول بأن المذاهب الفقهية لها أثرها في التوجيه لتطور الاتجاه الفقهي التفسيري للقرآن الكريم، ومن هذه الآثار:

١. ما حوته كتب الآيات المختصة بالأحكام من الفروع للمذاهب التي قد التزم المصنفون بها.

٢. وجود مباحث خلاف وهي المقصود منها الفقه المقارن والتي قد تضمنتها التفاسير لآيات الأحكام.

---

[١] المرجع السابق: نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٩٩٣)، علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ص١٠٤.

٣. ظهرت العديد من المناظرات الفقهية الطرفية التي قد اجتهد بها مفسرو المذاهب لتدعيم آرائهم واختياراتهم الفقهية ومذهبهم، وإن كانت هذه المناظرات لا تخلوا من التعصب.

التدرج في التفسير الفقهي:

إن هذا التجاه قد تطور بالتطور للمذاهب الفقهية ففي عصر النشأة لهذه المذاهب كان التفسير الفقهي يعتني بآيات الأحكام ويستنبط المسائل على حسب القواعد لكل مذهب.

ولما أصبحت المذاهب تقليد بعد عصر الأئمة كان التفسير لآيات الأحكام لا يخرج في الغالب عن طور التقليد لآراء علماء المذاهب والترجيح بينها وقت الاختلاف، وعندما طغا الاختلاف بينهم والتعصب فيه، أصبحت هذه المذاهب تعصب أعمى لآرائها وظهر هذا في التفسير الفقهي التي شحن المؤلفين فيها بالنقد لمخالفيهم من العلماء للنيل منهم[١].

وفي العصور المتأخرة بدأ التراجع في هذا التعصب فرأى أصحاب المذاهب بان المذهبية هي اختيارات يلتزم بها العالم، ومن ثم فإن عملية التعصب التي تؤدي بالنيل للعملاء المخالفين قد اختفي، وبرز الدعوة لاعتبار المذاهب الفقهية متساوية ويجب النظر لها والتعامل على ما يحفظ الحرمة لكل منها.

أشهر التفاسير التي ألفت في التفسير الفقهي:

١. أحكام القرآن للرازي الجصّاص

قال اللكنوي: " هو من أهم كتب التفسير الفقهي، لما فيه من عمق الاستنباط وفنون الاستدلالات، وقد شمل آيات الأحكام كلها على ترتيبها في المصحف، لكنه مع ذلك مبوّب على مثال ترتيب كتب

[١] انظر: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، (١٩٩٤)، أحكام القرآن للشافعي، تحقيق: محمد زاهد، القاهرة: مكتبة الخانكي، ط٢، ٢/٣٦.

الفقه، يضع لكل آية أو آيات عنوانا يدل على مضمون المسائل التي تستنبط منها أو تتفرع عليها، فكان بذلك أسبق من العصريين في اتباع هذه الطريقة، ومن مزايا هذا التفسير أنه لا يقتصر على ذكر الأحكام التي تستنبط من الآيات، بل يستطرد إلى تفريع مسائل تتفرع منها، ويذكر فيها خلافيات بين الأئمة والأدلة بتوسع كثير، ويعتني الإمام الجصاص في كل مسائل كتابه بتأييد مذهب الحنفية، بأن يبين وجه استدلالهم بالآية، أو يدفع استدلال المخالفين بآية احتجوا بها على الحنفية "[١].

٢. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي:

اسم هذا التفسير هو (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّن من السنّة وآي الفرقان)، واشتهر بتفسير القرطبي، وهو من أجل كتب التفسير وأعظمها نفع، وكان منهجه فيها: " بالعناية بالرواية وتخريج الأحاديث، وبيان جوانب اللغة والإعراب، وذكر القراءات، وبيان الناسخ والمنسوخ وإسقاط القصص والتواريخ، والتعويض عنها بالأحكام المستنبطة، وذكر أدلة الأئمة، ثم الإدلاء برأيه بغاية الهدوء والموضوعية، ويمتاز هذا التفسير بمزايا هامة، منها :وضوح عبارته وسهولته، ومنها حسن ترتيبه، فهو يقسم الأفكار ويجعل كل فكرة مسألة، ويصدر تفسير الآية بهذه العبارة :قوله تعالى كذا ... فيه سبع عشرة مسألة مثلا، المسألة الأولى .. وهكذا .. ما يساعد القارئ على ترتيب أفكاره وحسن الفهم "[٢].

وهناك بعض التفاسير الأخرى منها:

- ❖ تفسير أبي نصر محمد بن السائب الكلبي
- ❖ الاحكام لبكر بن العلاء القشيري المالكي
- ❖ احكام القرآن للإمام الشافعي جمعه من مصنفاته الامام ابو بكر البيهقي

---

[١] أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، (١٣٢٤هـ)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، مصر: مطبعة السعادة بجوار، ط١، ص٢٧-٢٨.

[٢] المرجع السابق: نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٩٩٣)، علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ص١٠٨.

- ❖ احكام القرأن" ليحيى بن عبد الله بن بكير
- ❖ احكام القرأن لابي الحسن علي بن حجر السعدي
- ❖ احكام القرآن" لابي اسحاق اسماعيل الازدي البصري

ثم توالت عملية التأليف في الاحكام بعد القرن الثالث الهجري فصنف فيها من العلماء، منهم:

- ابو الحسن بن موسى القمي الحنفي
- ابو جعفر احمد الطحاوي
- ابو بكر احمد بن علي الجصاص
- ابو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي
- ابو الوليد الباجي
- أبو الحسن علي بن محمد الكيا الهراسي
- ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري
- ابو عبد الله عبد المنعم بن الفرس الغرناطي

أثر المذهبية في التفسير الفقهي:

لو تم البحث عن التأثيرات المذهبية الفقهية في التفسير لآيات الأحكام لدى المتقدمين فنصل، فنتبين أن لها آثار إيجابية وأخرى سلبية، ويمكن أن يتم ذكرهم على النحو التالي:

الآثار الإيجابية للمذهب الفقهي في التفسير لآيات الأحكام[1]:

١-إن المذهبية قد قامت على التوجيه لفقهي للموسوعية، وظهرت هذه الخاصية عن طريق المسائل المختلفة التي يعرضها المفسر، فهو يتتبع الاختلاف للفقهاء والمذاهب للمجتهدين والآراء المختلفة، ويقوم بالجمع للخلافات العلمية والمسائل الخلافية داخل كل مذهب

[1] عبد الرزاق هرماس، (١٩٩٧)، الاتجاه الفقهي في التفسير نشأته وتطوره، مجلة الإحياء، ص١٢.

بالترجيح والتفريع والاستنباط، لهذا كانت التفاسير الفقهية أصبحت موسوعات في الفروع لتضاهي بها أمهات الكتب الفقهية.

٢-ومن الآثار الايجابية للمذهبية في كتب" احكام القرآن" تحفيزها للمفسر على تتبع واستقصاء دقائق المسائل، فكثيرا ما نجد فقهاء المفسرين يفرعون انطلاقا م الحكم الذي تدل عليه الآية مسائل جزئية، يدفعهم الى ذلك الحرة على الاستدلال لمختلف فتاوي المذهب أو مجرد الاستنباط الفقهي.

٣-الدور التي تقوم به الكتب المذهبية الفقهية في شحذ فكر المفسر للاحتجاج على مختلف المسائل، فقد كان متقدمو المفسرين المقلدين شديدي الحرص على تدعيم فروع مذاهبهم والاحتجاج لها، غير ان هذا الحرص يؤدي غالبا الى التعسف على المخالف وقد يؤدي أحيانا إلى إنصاف مذهب هذا المخالف[١].

الآثار السلبية للمذاهب الفقهية في التفسير للأحكام[٢]:

١- الطغيان للجانب التعصبي المذهبي لدى المفسر.

٢-خروجهم بالاختلافات الفقهية من الخلاف الاجتهادي للنقد والطعن الذي يجافوا به المناهج العلمية.

٣-الاعتبار للفتاوي الفقهية المذهبية لآراء العلماء هو حق وكل ما عداه يكون هو الباطل ولو أجمع العلماء عليه.

فتحامل المذاهب المخالفة هو نوع من العصب قد ظهر بأثره وطغى بشكل أعمى بداية من القرن الرابع الهجري، حيث كان التعصبية لمفسري الفقهاء يرون فيه أن كل من يخالفهم من مذهبهم فهو

---

[١] محمد حسين علي الصغير، (٢٠٠٠)، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، بيروت: دار المؤرخ العربي، ط١، ص١٢٢.

[٢] المرجع السابق: نور الدين محمد عتر الحلبي، (١٩٩٣)، علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ص١١٢.

على باطل، والنصرة للمذهب يقتضي فيه الانتصار للآراء فيه بمختلف المسائل التي تتعلق به، حتى لو أدى للشطط والنيل من أعلام أئمة المذاهب الأخرى، وقد يؤدي هذا في بعض الأحيان إلى التكلف في التفسير للآيات المخالفة للمذاهب الأخرى فقد تكون الدلالة للآية واذحة وظاهرة، أو مفسرة م خلال حديث صحيح فيها وبشكل واضح وجلي، ولكن يكون مذهب من المذاهب المشهورة على خلاف فيها، بسبب اللجوء للتكلف والتأويل والادعاء للنسخ للآيات أو التخصيص، وقد يؤدي للرد للأحاديث الصحيحة والتشكيك في بعذها لو شهد به لمذهب آخر بالاذافة للسعي للتوسع الفقهي في التفسير لبعض المسائل البعيدة عن الآية التي تم النقل لها آراء للمجتهدين من المذاهب الففقهية والعقائدية، فيلجأ لأسلوب التفريع للمسائل التوسع لها في الأحكام والغايات لإدراج لرآي آخر لمذهبه ذمن الأحكام المتعلقة بالآية، فتكون آراء غريبة في الفقه وأحكامه[1].

المبحث الثاني: اتجاه التفسير البياني:

إن المتخصصين في هذا النوع من التفسير البياني المعتمد على الإعجاز يكاد يكون إجماعهم على أن بداية الظهور لهذا النوع من التفاسير يرتبط بالظهور للمصطلح البلاغي والنقدي في صدر العصر العباسي، وقد فات عنهم أن قوم الفطرة في الإسلام الأول درسوا للقرآن دراسة تعتمد على النواحي البيانية له، فعرفوا بفطرتهم مواطن الإيجاز والإطناب والحقيقة والإيجاز فيها، ونقل عنهم ما يصلح أن يكون لبنة للتفسير البياني للقرآن الكريم.

مفهوم التفسير البياني:

إن البيان يقصد به الكشف عن المعاني، سواء باللفظ أو بدونه، ولفظ بيان قد عرفه العلماء عدة تعريفات: أنه اسم جامع لكل شيء يكشف القناع عن المعاني، والهتم للحجاب دون الضمير، حتى

---

[1] المرجع السابق: عبد الرزاق هرماس، (١٩٩٧)، الاتجاه الفقهي في التفسير نشأته وتطوره، مجلة الإحياء، ص١٤.

يفضي للسامع لحقيقته[1].

ونجد العلماء قد تناولوا للبيان القرآني على كونه إعجاز بلاغي، فظل من اهم جوانبه كذلك، لأنه من الواضح للعرب، وهو أول من شده العرب عند أول نزوله فحيرهم، وهم المدركون لأساليبه، العارفون لمناهجه[2].

أما بالنسبة للتفسير البياني، فقد عرفه السامرائي بأنه: " التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير [3]".

وقد عرفه كذلك سليمان الرومي بأنه: " أن البيان القرآني يجمع أمورا جملتها النظم الفريد العجيب الحسن المخالف لأساليب العرب، والصور البيانية التي تؤلف أبدع تأليف بين أفصح الألفاظ الجزلة وأصح المعافي الحسنة"[4].

نشأة التفسير البياني:

فكان القرآن الكريم قد نزل على قوم لهم بلاغة في اللسان والخطب والبلاغة وبراعته فيه ينضمون القصائد الرائعة وعقدوا الندوات للموازنة والنقد، فأدهشهم القرآن الكريم فجعلوا يتأملون له ولآياته، ويتصفحون للسور فيه، فألفوا فيه ودرسوا له وتحدثوا عن التفسير البياني للقرآن، بداية من الصدر الإسلامي، ومن قبل إلى ما بعد هذا حيث قد تهيأت جميع أسباب العلم للحديث الاصطلاحي عن المسائل البلاغية النقدية في العصر العباسي ظناً منهم أنه عصر الفطرة الذي طبع فيه النظر البلاغي لمن سمعوا القرآن، فدرسوا له دراسة بلاغية لها منحي القول المختلف في البيان، فلم يفت

---

[1] البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، ١/٦٨.

[2] أحمد مختار عمر، (١٩٩٧)، لغة القرآن دراسة توثيقية فنية، مؤسسة الكويت، ط٢، ص١٨٦.

[3] فاضل صالح السامرائي، (٢٠٠٠)، على طريق التفسير البياني، الامارات العربية: جامعة الشارقة، ج١/٧.

[4] فهد عبد الرحمن بن سليمان الرومي، (١٤١٩هـ)، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، الرياض: مكتبة التوبة، ط٤، ص١٩٧.

عنهم الوقوف على المصطلحات البلاغية فيه فتتابع الزمان فيه، ولم يفت عليهم فيه شيء من جوهره ومصطلحاته إذ عرفوا فطرتهم المطبوعة لأماكن الإيجاز والاطناب والحقيقة والمجاز.

فالبداية التفسير البياني كانت في صدر الإسلام حيث أن النبي الكريم هو أول من فسر القرآن ووضحه لقومه، امتثال لقول الله تعالى: (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[١]، ونجد ان تفسير صلى الله عليه وسلم فيه جملة واضحة من التفسير البياني، منها تفسير الآية الكريمة: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)[٢]، بالبياض لليل والسواد للنهار منتقل من المعنى الحقيقي للمعنى المجازي[٣].

ومنه التفسير البياني للنبي في سورة الواقعة، في قول الله تعالى: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)[٤]، فقد فسر النبي الكريم معنى الرزق بالشكر آخذ المعنى من السياق القرآني التي تعدد بعض النعم فيه واختص الله عباده بها، فيقول تعالى: (أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)[٥]، فالكافرين يجحدون ما يعلمون من النعم الإلهية فوبخهم الله تعالى في القرآن الكريم، فقال تعالى: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)، ففسر الرزق هنا بالشكر، وهو مجاز مرسل من باب السببية والمسببية.

ومنه كذلك تفسير النبي: لما جاء لنا عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: ((أخبرتني أم مبشر – رضي الله عنها – أنها سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم –، يقول عند حفصة – رضي الله عنها : "لا يَدْخُلُ النَّارَ –إن شاء الله– مِن أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أحدٌ، مِنَ الَّذِينَ بايَعُوا

---

[١] سورة النحل، الآية:٤٤.

[٢] سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

[٣] محمد رجب بيومي، (١٩٧١)، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، الشركة المصرية للطباعة، ج٤٢، ط١، ص١٢.

[٤] سورة الواقعة، الآية:٨٢.

[٥] سورة الواقعة، الآية: ٥٨–٦٠.

تَحتَها"، قالت :بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة – رضي الله عنها : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)[1] فقال النبي – صلى الله عليه وسلم" :– قَدْ قَالَ الله – عز وجل: (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا)[1]).[2]

فحفصة – رضي الله عنها – اكتفت بالآية الأولى، لتفهم من خلالها أن جميع الناس سيدخلون النار، ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – استعان في تفسيره بما جاء من البيان المتَّصل بعد الآية مباشرةً؛ ليفهم من ذلك نجاة المتقي.

وقد رجّح الطبري أن المعنى: "يرِدُها الجميع ثم يَصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار، وورودهما هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناجٍ مسلم، ومكدس فيها " .[3]

ثم كان من بعد النبي الكريم الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم ابن عباس إذ اشتهر بالتفسير اللغوي لكتاب الله تعالى وقد رجع فيه للتراث العربي والشعر، فكان هو صاحب الرأي الخاص لما يعرفه من الألفاظ والتراكيب الغريبة للعرب، فكان هو من أصدق من اشتهر بهذا اللون التفسيري، وإن كان عمر ابن الخطاب كان أول من استن هذا التفسير[4]، فقد سال عن معنى قول الله تعالى: (أو يأخذهم على تخوف)[5]، فقال شيخ من هذيل ليقول بأنه هذه من لغته ومعنى التخوف هنا هو التنقص، فسال عمر عن الشاهد من أقوال العرب ينبئ عن هذا القول، فقال له شاهد من الشعر عليه.

قال زهير:

---

[1] سورة مريم، الآية: ٧١.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل البيعة (٤/ ١٩٤٢)، رقم الحديث: (٢٤٩٦).

[3] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (٢٠٠١)، تفسير جامع البيان، تحقيق: عبد الله التركي، القاهرة–مصر: دار هاجر للطباعة والنشر، ط١، ٢٣٤/١٨.

[4] محمد رجب البيومي، (١٩٧١)، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، مجلة البحوث الاسلامية، م٣، ج٤٢، ص٢٠.

[5] سورة النحل، الآية:٤٧.

تخوف الرحل منها تامكا قردا   كما تخوف عود النبعة السفن[1]

فقد كان الفاروق من الجاهرين بحيث يكون رأيه هو موضع التنفيذ لو وجد عليه دليل صريح، والدليل هنا واضح له من أن يشار لأن القرآن عربي بلسان عربي، وقد قال سبحانه: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[2]، فالرجوع له للغة العرب في التفسير هو المصدر الحقيقي دون ان ينازع فيه أحد، وقد خاصم البعض طريقة عمر من المفسرين ورأوا بان رجوعه للشعر في التفسير للقرآن يجعل الشعر هو أصل للقرآن ومنهم ممن قال بهذا هو النيسابوري، فقد صرح في مقدمته بهذا القول وأنه لا يجوز الاحتجاج بالشعر في القرآن وأنه مذموم في القرآن والحديث معه[3].

وكان كذلك ابن عباس يفسر باستخدام الشعر ويذهب للتفسير البياني، كما ذكرت قبلاً، فنجده في تفسيره لقول الله تعالى: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)[4]، حيث أنه قد أجاد في البيان للمقصد التمثيلي في الآية الكريمة فقال أن الله تعالى قال أيود أحدكم أن يعمل بعمل أهل الخير والسعادة حتى إذا كان أحوج لما يكون الختامة له بالخير حين فنى العمر ويقترب الاجل له فيختم به من عمل أهل الشقاء فيسفده جميعه.[5]

وقد كان ابن عباس يحذو طريق عمر باستخدام الشعر الجاهلي والإسلامي في التفسير للمعاني القرآنية وألفاظه، فكان له تفسير كبير وعميق لا تفلت عنه دقائق، وله فوائد عديدة في التفسير البلاغي، ومن الآيات التي قام بالتفسير لها ابن عباس كذلك:

---

[1] لأبى كبير الهذلي. وقيل لزهير. والتخوف: التنقص شيئا فشيئا. والتامك: السنام المرتفع. والقرد :الذي أكله القراد من كثرة أسفارها

[2] سورة الزخرف، الآية: ٣.

[3] المرجع السابق: محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة، كتبة وهبة، د.ن، ١/ ١٤٥.

[4] سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

[5] ابن جرير الطبراني، (١٩٧٨)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار الفكر، د.ط، ص٥٧.

قد أتى عبد الله بن عمر سائل فساله عن تفسير قول الله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[١]، فقال له اذهب لابن عباس ثم تعال فأخبرني، فذهب له ليسأله فقال له: كانت السموات رتقا لا تمطر والأرض رتق لا تنبت ففتق المطر لها، وبالنبات فيها، وهو من باب الكناية، فرجع الرجل لابن عمر فأخبره، فقال كنت أقول ما تعجبني جرأة ابن عباس على التفسير للقرآن فالآن علمت أنه أوتي علماً[٢].

ثم جاء عصر التدوين لهذا النوع من التفسير، وأول من وضع لبنته وهو أبو عبيد، حيث صرح بالدراسة البلاغية للقرآن وهذا في كتابه " مجاز القرآن"، الذي قد تعرض فيه لنصول قرآنية عديدة وما تدل عليه من الحقيقة والتشبيه والتمثيل والكناية وما فيها من التضمين للذكر والحذف والتقديم والتأخير، ولم يقصد في حينها ما هو حقيقي وما هو مجازي في الآية، ثم جاء من بعده مجموعة من المؤلفين لنفس المجال، فنجد كتاب الفراء لمعاني القرآن، وخاض فيه ما قام به من قبله أبو عبيدة من ألوان العربية واللمسات البيانية ولكن النحو قد غلب في منهجه حيث توسع فيه بالقراءات[٣]. ثم كان القرن الرابع الهجري فاختار أغلب الصحابة هذا اللون من التفسير وأسموه[٤]: " اعجاز القرآن"، فتم فيه التأليف للعديد من الكتب منها:

- " النكت في الإعجاز القرآني" لرماني.
- " بيان إعجاز القرآني"، للخطابي.
- " إعجاز القرآن للبقلاني".
- كتاب " المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار.

---

[١] سورة الأنبياء، الآية:٣٠.

[٢] محمد رجب البيومي، (١٩٧١)، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، مجلة البحوث الاسلامية، م٣، ج٤٢، ص٢٢.

[٣] المرجع السابق: محمد رجب بيومي، (١٩٧١)، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، الشركة المصرية للطباعة، ج٤٢، ط١، ص١٥.

[٤] يوسف وليد النبية، (٢٠٢٠)، المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم- تفسير فاضل صالح السامرائي، مجلة الممارسات اللغوية، م١١، ع٣، ص٢٤.

واشتهر كذلك في القرن الخامس بهذا اللون مجموعة من المفسرين منهم "عبد القاهر الجرجاني" بعد أن ألف كتاب:

- "دلائل الإعجاز"
- أسرار البلاغة"
- رسالته التي أسماها: "الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم".

وقد وجد بعض الانحراف والخطأ الواقع في هذا النوع من التفسير ويمكن إجماله في التالي[1]:

١- الانحراف العقدي فيه:

وقد ظهر هذا النوع من الانحراف في التفسير بالتزامن مع الظهور للمذاهب الدينية المختلفة في التفسير فمنهم من يعمد للآيات، فيحملون ما بعدها لبيانها، وحينما يقطعون الآيات عن التي تلحقها المرتبطة بالمعنى معها فيكونوا هنا يتأولون بالقرآن تبع للعقائد الباطلة، فيطوعونه لخدمة مذاهبهم فتكون مستتد لهم في الصحة لما يدعون.

٢-التشكيك في الأحكام الشرعية:

لقد ظهر في هذه التفاسير ما يعارض أحكام الآيات القرآنية وما تشتمل عليه من المسلمات المعلومة في الدين بالضرورة، بالتجاهل للنصوص الواردة في الكتاب والسنة من جانب، ومخالفة للغة العربية من اتجاه آخر، فقام من يستخدم التفسير البياني باستخدام الاتصال بالأداة لنقض الاحكام الشرعية وتحميلها على النصوص بما لا يحمل المعنى نصرة لمذهبهم.

فمنه: قصر تحريم الربا على (ربا النَّسيئة)، وإباحة غيره، وهذا في قول الله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)[2].

---

[1] بسمة بنت عبد الله بن حمد الكنهل، (١٤٣٩)، التفسير بالبيان المتصل بالقرآن الكريم، المملكة العربية السعودية- ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص١٢٦-١٣٠.

[2] سورة آل عمران ، الآية: ١٣٠.

قال محمد رشيد: " قد علم مما تقدم في تفسير الآيات أنها نزلت في وقائع كانت للمُرابين من المسلمين قبل التحريم، فالمراد بالربا فيها ما كان معروفًا في الجاهلية من ربا النسيئة؛ أي ما يؤخذ من المال لأجل الإنساء، أي التأخير في أجل الدَّين، كأن يكون للرجل على آخر دينٌ مؤجل يختلف سببه بين أن يكون ثمنًا اشتراه منه أو قرضا اقترضه، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين مالٌ يفي به؛ طلب صاحبَ المال أن ينسِئ له في الأجل ويزيد في المال، وكان يتكرر ذلك حتى يكون أضعافًا مضاعفة، فهذا ما ورد القرآن بتحريمه لم يُحرم فيه سواه، وقد وصفه في آية آل عمران التي جاءت دون غيرها بصيغة النّهي، وهي قوله – عز وجل –: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، هذه أوّل آية نزلت في تحريم الربا فهو تحريم لربًا مخصوصٍ بهذا القيد، وهو المشهور عندهم، الصّحيح أنه وإن كان الربا المذكور في الآية هو ربا الجاهلية المشهور عندهم، إلا أن حرمة الربا لا تُقيّد بتلك الصورة دون غيرها، فالربا محرمٌ بجميع صوره، لتظافر الأدلة الصريحة من الكتاب والسُّنّة وإجماع السلف على تحريمه"[1].

والشاهد: خطأ من استدل بقوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)، على تقييد الربا المحرَّم بالنوع الذي كان مشهورًا عندهم في الجاهلية، فالربا محرمٌ بكل أشكاله للآيات والأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك، فهو من المسلَّمات المعلومة من الدين بالضرورة، وإنما يُفهم من قوله : (أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)، اعتبار العادة التي كانوا يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حلّ الأجل زادوا في المال مقدارًا يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدَّين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المربي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء [2].

---

[1] محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، (١٩٩٠)، تفسير القرآن الحكيم –تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٩٦/٣.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، (١٤١٤)، فتح القدير، بيروت: دار ابن كثير، ط١، ٤٢٦/١.

المبحث الثالث: اتجاه التفسير العقدي:

إن أهم ما قصد له القرآن الكريم هو البناء العقائدي الصحيح في النفوس، فمحل العقيدة هو المسيطر على العقل والقلب، فلا فرق بين عقيدة وثنية أو أهل كتاب فيها، فلو كانت العقيدة هي المرتكز للقرآن الكريم بل كانت هي أهم مسائله فقد أراد الاثبات لنا دعائمه، فيبين لنا هذا في قوله تعالى: (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَال الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ & أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[١]، حتى المدني فيه عني بالتشريع بالأحكام ولم يخل فيها بموضع سوى ولفت للعقيدة[٢].

والرسول الذي أُعطي جوامع الكلم عليه وآله الصلاة والسلام، كان كل همه أن يؤمن قومه، حتى لقد كان عدم إيمانهم يشق عليه قال تعالى: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)[٣]، وها هو الرسول يتلو عليهم القرآن، ليبشر به المتقين وينذر به قومًا لدا، يخاطب عواطف القوم وعقولهم: (قولوا كلمة واحدة فإذا قلتموها دانت لكم العرب، وأدت لكم العجم الجزية، قولوا :لا إله إلا الله)[٤].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعًا، ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا. وإنها لجنة أبدًا، أو لنار أبدًا))[٥]، فقد ألقى القوم الشبهات وطلبوا الاقتراح وعاندوا وكابروا، والقرآن معهم في تدرج يبين الأدلة ويكر على شبهاتهم ليأتي عليها ليثبت الله دينه في النفوس ويمكن له من الأرض.

---

[١] سورة ص، الآية: ٤-٥.

[٢] مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، (١٩٦٩)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط – التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني – مطبعة الملاح – مكتبة دار البيان، ط١، ٤٠٣/٢.

[٣] سورة الشعراء، الآية:٣.

[٤] سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن باب، ومن سورة ص(حديث رقم: ٣٢٣٢)

[٥] رواه البلاذري؛ ذكر ذلك الإمام محمد بن يوسف الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٢٢).

ظهور الفرق في التفسير العقدي:

إن الصحابة رضي الله عنهم يفهمون الآيات القرآنية والعقدية دون ان تمحل لهم او تكلفة فيها، وهذا لأن التوجيهات القرآنية هي الشعلة التي يتقودون بها في نفوسهم، فهي طريقهم في هذه الحياة ينقذهم من الحيرة فيه، فيندفعون بعقيدتهم فيها اندفاع الماء المتدفق من الأرض لسقاء الناس، واستمر الحال حتى ظهر في البيئة الإسلامية الفرق والمذاهب، وأصبح هناك أناس كثيرون وأحزاب تتناحر فيما بينها بالأدلة تارة وبالسيف تارة أخرى، فكانت كل فرقة تلجأ لأن تثبت قولها فتأخذ منه ما يؤيد كلام المذهب فيها، وكثراً ما كان يظهر التكلف فيه بشكل كبير والتعسف، وكان هذا له تأثير فظهرت العداوات فأصبحت كذلك ظهور الكتب والتفاسير والموسوعات رحاب واسح للمعارك الجدلية والآراء المختلفة والمذهبية فيه.

يقول عباس: " ومما سعر تلك الحرب وأذكى نارها، وزاد أوارها، احتلال الفلسفات مكانة في البيئة الإسلامية وذلك كله يدركه لأول وهلة من يقرأ في تلك الكتب. فما على الإنسان مثلًا إلا أن يقرأ تفسير آية في مفاتح الغيب للإمام الرازي أو من كشاف الزمخشري ومن نقلوا عنه، كالبيضاوي وغيره، أو علقوا عليه كابن المنير أو الطيبي، ومن جاء بعد هؤلاء فإنه يواجه ذلك التشاحن، أو ذلك الترف العقلي في تفسير كثير من الآيات، بين الأشاعرة والشيعة، أو السلف وغيرهم من الفرق"[١].

وأكثر ما يكون هذا بين الأشاعرة والمعتزلة، فمن أبحاث الصفات إلى أفعال العباد، ومعنى الهداية والإضلال، والحسن والقبح، ووجوب شيء على الله أو عدم وجوبه، إلى بحث الرؤية وغيرها من المسائل الكثيرة. واستمر هذا ديدن المفسرين على اختلاف اتجاهات في التفسير، إلى زمن متأخر أدركه صاحب روح المعاني، فأدلى بدلوه كذلك.

---

[١] فضل حسن عباس، (٢٠١٦)، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ٥٣٦/١.

مميزات الاتجاه العقدي في التفسير:

١. التركيز على الإسلام دين العقل:

إن مفهوم العقيدة لدى الغرب مختلف لدى المسلمين، فنجد الفلاسفة الغربيين يرون أن العقيدة لا ترتكز على العقل ولا إرداة فيها ولكن هو شيء يرتكز فيه على اللاشعور، بينما يرى المسلمون العقيدة هي ركيزتها العقل والوجدان، حيث قد عرفوها بانها: " الجزم المطابق للواقع عن دليل".

٢. عدم التعقيد والسهولة للعرض:

هي في الحقيقة السنة القرآنية وطريقتها في العرض للأمور العقدية، حيث ذكر القرآن لنا الألوهية والبعث وأخبار الأنبياء، وجميعه كان سهل في مسلكه، فعرض لنا قضية الوجود بالذكر لصحائف الكون، كونها لوحة فنية، والرائع ان هذه الصحائف المعروضة من القرآن ليست جديدة للبيئة التي نول لها ولا هي مما عرف فيها من البيئة من خلال أطلال الشعراء ورسوم الديار والوحوش والفيافي، مما تحدث عنه الشعراء، بل كان عرض القرآن وحديثه شاملًا لهذا الكون كله، بما فيه من طبقات علوية ويابسة وماء. كل هذه المشاهد جاءت أدلة على عظمة الخالق ووحدانيته وقدرته[١].

فنجد أدلة البعث التي عرضها لنا القرآن الكريم، ليقنع العقل بها والعواطف، فيقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ & ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ & وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ).[٢]

---

[١] المرجع السابق: فضل حسن عباس، (٢٠١٦)، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ٥٣٩/١-٥٤٠.

[٢] سورة الحج، الآية:٥-٧.

فهذه الألة من القرآن الكريم تثبت العقيدة الدينية وأنها ليست تجريدية، ولكن جميعها متصلة بالإنسان وهي من أعظم النعم عليه، ولو أردنا إدراك الفرق بين تلك الأدلة وما جاء به المتكلمين فيها، فنقرأ كتب فيها لنجد الفرق الهائل بينهما.

٣. الرد على الشبهات:

لقد مر بالإسلام العديد من النكبات، اجتمعت عليه، من أقطار الدنيا المختلفة شرقها وغربها، ولقد كان أعداء الإسلام يسلكون طريقًا، خططوا له ما وسعهم التخطيط، ودبروا وبيتوا ما أمكنهم ذلك. فحاولوا أولًا أن يحولوا بين المسلم وبين سلوكه القويم في عبادته وحياته كلها. فلما كان لهم ما أرادوه، انتقلوا نقلة أخرى وهي زعزعة عقيدته، وإحلال الشبهات والأفكار الغريبة مكان تلك العقيدة، ليتنكر المسلم لدينه، ومن المؤلم أن الكتل الكبرى في هذا العالم وهي –الكاثوليك والبروتستانت والشيوعية واليهودية والوثنية– هذه الخمس على اختلافها، وعلى ما بينها من بغضاء وشحناء، تعمل جاهدة لمحو معالم الإسلام عن ظهر هذه الأرض، ولكن بعد محوها من قلوب المسلمين لذلك كان لزامًا على مفسري القرآن في هذا العصر أن يشمروا عن سواعدهم، ويدفعوا بكل ما عندهم من طاقة وقوة، أمدهم بهما القرآن، الذي لا ينضب معينه، من أحل القضاء على هذه الشبهات، ورد تلك المطاعن، والحيلولة بينها وبين التسرب إلى قلوب المسلمين، فليس غريبًا أن نراهم يلاحقون هؤلاء المضللين والمضللين، فيردوا على هؤلاء الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم[١].

فنجد المفسرين يردون على مثل هذه الشبهات وعلى منكري الوحي، ومثيري الشبهات حول نبوة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وحول ما في القرآن من أحكام وقيم، كما يردون على الفرق التي غذاها الاستعمار كالقاديانية والبهائية، فنجد صاحب الظلال يرد نظرية دارون في خلق الإنسان، ونظرية فرويد الذي يزعم أن الانسان يتمرغ في أوحال الجنس ويرجع الظواهر الإنسانية كلها إلى هذا.

---

[١] إبراهيم بن عبد الله المعثم، (٢٠١٩)، النباء العقدي في القرآن الكريم النهي عن الشرك نموذج، ورقة بحثية للمؤتمر العالمي للدراسات القرآنية في أوروبا، بتاريخ: ٢٠١٩/٧/٧، ص١٠.

٤. تضييق نطاق الخلافات الداخلية:

إن كتب التفسير قديماً تمتلئ بالعديد من الخلافات المختلفة بين معتزلة وبين أهل السنة وغيرهم، ومنهم أصحاب المذاهب كذلك والفرق، وتلاشت جميعها وكادت ظهورها يلغى، ولكن ظهر من بعض المحدثين الخلاف في آيات الصفات وما اتصل بها.

إن كثيرًا من مفسري العصر الحديث، يؤكدون سلفيتهم في تفسير القرآن، ولذا تجدهم يظهرون ذلك في تفاسيرهم، كما فعل صاحب المنار، ولعل هذه المسألة هي من أهم المسائل التي عولجت بعنف وشدة من كلا الطرفين. فهؤلاء يتهمون أولئك بالتجسيم، وأولئك يصفونهم بأنهم جهمية معطلة. ووصل التراشق بين الفريقين إلى ما هو أبعد من ذلك.

لقد نهى الرسول عليه وآله الصلاة والسلام عن الجدل في كل ما لا يجدي، ومن ذلك أن يفكر المسلم في ذات الله. ولقد بلغ الرسول في هذا النهي. أقصى مراتب الحكمة، التي يمكن لمخلوق أن يتوصل اليها. فهذه الفلسفة اليونانية حينما سلكت ذلك المسلك، وقعت في حمأة الخيال، وترددت في أوحال الشذوذ. ولعل من الأسباب التي جعلت الغرب يتمرغ في أوحال الإلحاد، ويتنكس تلك النكسات، اقتفاءه الفلسفة اليونانية في أبحاثها، حيث ضلال الطريق. ولعل وصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بعدم المراء في الدين، كانت الحصن الواقي للمسلمين، ردحًا من الزمن غير قصير، كي يحتفظوا بحرارة العقيدة كامنة في قلوبهم، تمدهم بشعلة الحق وإشعاعات النور. إن كلا الفريقين من العلماء سلفهم وخلفهم، هدفه سياج تلك العقيدة بأسلاك شائكة، حتى لا يحوم حولها مشكك.[١]

---

[١] المرجع السابق: فضل حسن عباس، (٢٠١٦)، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ٥٤٣/١.